حتى يبقى الريحان

اســـــم العمـــــل	:	حتــــى يبقـــى الريحـــان
النـــــــــــوع	:	روايـــــــة قصـــــــيرة
تـــــــــــأليف	:	محمـــــــد فـــــــاروق
تصـــميم الغـــلاف	:	إســـــــلام الـــــــبلاط
إخـــراج داخلـــي	:	عبـــــــدالقادر فـــــــايز
الطباعـــــــــة	:	اتيليــه تـــاتش – المحروســة
الناشـــــــــــر	:	الـــدار للنشـــر والتوزيـــع
المـــدير العـــام	:	محمـــــد صـــلاح مـــراد
تليفـــــــــون	:	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريــد الإلكترونـــي	:	eddar_press@yahoo.com
فــــيس بـــــوك	:	www.facebook.com/eldarpublish
رقـــــم الإيــــداع	:	٢٠١٦/٢٣١٨٧
التـــرقيم الـــدولي	:	I.S.B.N.: 978-977-702-162-3

حتى يبقى الريحان

روايـــة قصيرة

محمد فاروق

الدار
للنشـر والتوزيـع

٢٠١٦

(١)

رسم الظلام والنور لوحة ما خلفه، ببطئ.. نور الشروق مختلف الألوان آتياً من أسفل والعتمة العلوية يفصل بينهما خط أزرق شفاف يتحرك. يمشي هو متبختراً من التعب حاملاً زلعته في يده اليسرى، يتساقط منها من العسل ما يكفي لإطعام كل من في البيت ولكنه لايهتم، تتغير اللوحة خلفه ببطئ مع مضي الوقت، حيث يعلو ذلك الخط الأزرق الشفاف الفاصل فيعطي للنور من مساحات الظلام اللامع، بينما يكمل هو طريقه مدارياً ضوء الشمس ليرسم ظلاً أمامه يزيد سواده قليلاً عن ظلمة الليل المنتهي. يمشي مشيته المتعبة التي تثير مشاعر الغبار حتى يذوب ظله مع رمل الطريق في تباهٍ بتمايل صاحبه ورقصته الخاصة مع هالات الندى والغبار التي يثيرها هو والطبيعة في إتفاق يومي متجدد. يعانق الرمل والغبار ذرات العسل المتساقطة في تجربتها الأولى للطيران أو السقوط الحر، تسقط بعدها في ثنايا وديان تخلقها في الرمال المجاورة لآثار أقدامه العميقة، وتزيد من لونها الذهبي في أريحية وسرور.

من بعيد يتظاهر القمر بالنعاس وتتظاهر الشمس بالنشاط، تلاعب آشعتها الناعسة سطح البحيرة المالحة على يمينه ثم تنعكس في طفولة لتظهر لوحة أخرى من تتابع النقاط المضيئة وهي تغير اتجاهها في سرعة على سطح البحيرة. تنعكس بعدها لتقف على قطرات الندى، التي تتكون على جانبي أنفه وأعلاها، وتسافر ببطئ، مثله، في وديان وجهه العميقة.

لايقابل أحدا لأن أغلب أو كل الناس نيام، يكاد يسمع غطيطهم وأصوات تقلبهم على الأسرة، يمر بجانب بيوتهم المبنية من الطوب اللبني والحجارة، يمر بجانب السوق والمحلات والمشغولات اليدوية والسجاد وأماكن تواجد الناس وكلامهم وصمتهم وصراخهم الذي يصل مداه عند انتصاف النهار، يرى جبل "الدكرور" الشامخ من بعيد وقصر "شالي" العتيق الذي يقبع في أطلال "سيوة" القديمة، يرى في هذه المناطق كل السحر الأمازيغي القديم وأماكن تواجد أرواح الناس منذ زمن ليس ببعيد ورقصهم وهجرتهم واتصالهم، ونومهم الحالي المسالم فوق الأرض أو تحتها.

يســـابق نوم وأحلام كل هؤلاء بمشـــيته البطيئة حتى يطعمهم من عســـله وفطيره، يتراص الأخير في دوائر غير مغلقة محيطاً ببعضـــه البعض مثل بتلات الورود ، لايفصـــل بينه وبين قماش شـنطته المعلقة بكتفه الأيمن أي شـئ ولكن تفصـل بين الفطائر وبعضـها أكياس قديمة من النايلون وأوراق بيضـاء مربعة رقيقة بها نوافذ شـفافة في أماكن تلمسـتها بقاع السـمن البلدي وتعلقت بها للأبد، تتحاب وتتجاذب رقائق الفطير ودقيقه مع قماش الشـــنطة وخيوطها الهاربة وتظل الســـوســـتة الحديدية متماسكة تحمي الفطير من الوقوع إلى مجهول الرمال.

تتباين أطياف من روحه في عينيه فتبدو زرقتها ملتهبة حـارقـة عكس الزرقـة في طبيعتهـا، تتجـاذب في وجهـه قطرات النـدى التي تتراص الآن في طـابور طويـل مع قطرات العرق المولودة حـديثـاً على جبينـه الحـار، تتنظرن لحظـة من الإنتحـار الســـعيد حيث يقعن من جبينه وجفنيه الســـفليين إلى ذرات العسـل السـاكنة في رمال الطريق الطويل، تراصـت خلفه قطرات

عرقه وعسله وآثار قدميه تاركة طريقا آخر ملتويا تكونه مشيته الحزينة او المتعبة.

يمتلئ جيبه الأيمن بأشياء لايعرف نصفها أو يعرفها ولكنه لايعرف لماذا يحملها معه، خاتم زوجته التي تركته اليوم، لم ترحل بعيداً حتى ينساها ولكنها ذهبت إلى مكان شديد القرب منه.. قطعة قماش حمراء وزرقاء مثل لوحة سريالية لا يفهمها إلا هو وجدته الراحلة التي تركتها له أو أخذها منها.. تذكره بالشتاء والثلوج في فيينا وبالحر في صقلية، وتُحضر ذكريات ربطة عنق "بسنت" من أربعين سنة أو أقل قليلاً، يُذكره ملمس القماشة بأوقات أراح فيها ظهره ونام تحت أشجار البرتقال والليمون ولمست أطراف أصابعه الورود والحشائش وفروع الأشجار البنية الراحلة. يجد أيضاً ورقة صغيرة يرسم فيها ذكرياته عندما لا يستطيع حكايتها لعم "عبده"، تداخلت فيها الخطوط والأقلام والألوان، رسمات لجسور وبحار وجبال وثلوج، رسمت له الوريقة لوحة سريالية أخرى لا يستطيع فهمها، خاصةً عندما يتفقد محتويات جيبه على ضوء شمعه أو قنديل قبل أن ينام ليلاً.

يطرح الخواء بداخله فروعاً تمتد لتحتل بطنه وصـــدره وبقايا أطرافه، وفي قلب الخواء ترقد روح الطفل الصـــغير، هذا الشـيطاني المرح المغامر الذي يتذكره قافزاً أمام أكشـاك حراسـة السـفارات والمباني المهمة، ممثلا بيديه مسـدساً مرة وبندقية مرة أخرى أمام العسـكري المفزوع نصـف النائم الذي يحيط بندقيته والســونكي كأنهما كنز أو رضــيع يخاف عليه من الفناء. كان يقفز أمام أكشاك حراسة السفارات عندما يذهب مع خاله إلى القاهرة لزيارة أبيه المريض في إحدى المســتشــفيات هناك، لم يعرف سـاعتها كُنه مرض أبيه ولكنه كان ينسـى كل شـئ عن والده عند إنتهاء وقت الزيارة واصـــطحاب خاله له ليأكلا ويجلســـا في إحدى المقاهي قبل طريق العودة الطويل، وعندما يغلب خاله النوم يمشي هو حول المقهى باحثاً عن أولاد في مثل سنه يعلمونه ألعابا جديدة ويعلمهم هو، في خبث، كيفية القفز المفاجئ أمام السـفارات والهروب بعدها، والجري وراء السـيارات ذات الأعلام التي تدخل من أبواب السـفارات بسـلاسـة وكيف يحتار الحراس في التعامل مع هذه الأعمار الضئيلة التي تملك شرا

كافيا بأن يجعلهم قائدي العالم الحر. تختلط هذه الذكريات بضحكات طفولية كثيرة وأصوات عدو الأقدام المرح والكثير من الروائح العالقة بذهنه وأفكاره.

(٢)

يقبع كيس القرفة في الجيب الأيسر وحيداً، تفصل بين القرفة وبين أنامل صاحبها عقدة كبيرة سهلة الإختفاء عندما يريد صاحبها رش القرفة على سطح الفطيرة، يرش ما يستطيع إصبعين متقابلين حمله، القرفة تجعله أكثر من مجرد بائع فطير آخر، تمهد له آفاقاً روحية جميلة قابلة للشم وأحياناً للتذوق، تأخذه نحو اللاشئ وكل شئ، تختلط القرفة في الكيس بالقليل من القرنفل وفي بعض الأحيان بالريحان المجفف لتبقى رائحة هذا الجيب مثل جنة بها عيون وآبار وسياج وشجيرات سحرية. أحياناً يكون معه أيضاً في جيبه الأيسر بعض حبات الفول السوداني المحمصة أو كشافاً صغيراً أخضر اللون ينير به طريق الرجوع إذا تأخر في العودة لمنزله.

"هند" كانت أول من قدمت عالم الأعشاب والبهارات والحبوب إلى أنفه وفمه، يجلسان بالأيام يقومان بالتجارب مع المياه الساخنة والطعام و أنواع الحساء في تلك الفترة الشتوية الحزينة، أو التي يتذكرها الآن بالحزن لأنه حزين، التى تلت عودته إلى مصر والقاهرة قبل عودته إلى الواحة، يجلسان في شقتها الواسعة بإحدى عمارات وسط البلد في أحد الأدوار العالية، حيث تقابلا عبر صديق فرنسي وهما يجلسان في غياب عقلي على إحدى مقاهي وسط القاهرة، وافقت أن تستضيفه إلى أن يقرر العودة للواحات، كان لايريد العودة لسبب لايعرفه، لايتذكر الآن إن كان قد قرر عدم العودة قبل أو بعد أن تدعوه للبقاء.

يجوبان الشقة و تحكي له ذكرياتها التي يكاد يحكيها الآن على أنها ملك له، تحكي له عن الفن وأنواع البشر وفلسفتها في البقاء والموت والحياة والعمل، يجلس وهي لاتزال تتحرك جيئة وذهاباً أمام البلكونة ضاربة بيدها تنورتها، الملونة في زخارف غجرية غير متماثلة، باعدة إياها إلى الخلف في حركات

حادة تزيد من انحسار التنورة عن أرجلها السمراء الرشيقة.. يشاهد الخلخال القماشي ذا اللونين البرتقالي والأصفر وهو عالق في قدمها اليسرى، يعلو ويهبط لمسافات ضئيلة في خوف وحب تملك كروحها غير المستقرة. تنفعل ويعلو صوتها ثم تهدأ وتنظر لبقية البيوت والشوارع من البلكونة في نظرات حانية حزينة.. دائماً ما تخيل أن ذكرياته وذكريات كل من آئتمنوه على قصصهم من التعقيد والتداخل، لدرجة أنها إما ذكريات وقصص غير حقيقية أو أنه هو غير حقيقي بالمرة لسماعها وتجربة بعضها، يتذكر في تلك الفترة أن هندا أعطت له الضوء الأخضر والمساحة للتفلسف والتكلم بحرية وصدق، لأن يقول مابقلبه، أن يتجاوز حتى أعقد الأسوار التي يضعها عقله لاعباً لتحوير الحقيقة، وأن يصل إلى مايريده من نفسه ومن الآخرين، أعطته فلسفة صادقة بسيطة حررته حتى من أصغر القيود.. ولم تحرره هي في النهاية.. حتى عاد إلي بيته وأمه ونسي عنها كل شئ.

وقف قليلا ليقتطف بعضـــاً من الريحان والنعناع من شـــجرتين متجاورتين على الطريق الرملي، يضـــعهما في جيبه بجانب كيس القرفة في حب ويربت عليهما، يحب كل ماتجلبه الطبيعة من جمال يلمســـه بكل حواســـه، يعد البلح الأحمر في سرعة وهو يمر بجانب عائلة من النخل المتدرج في الطول، لايمل النخل أبداً من طرح البلح ولايمل هو من الاستمتاع بجماله.

تذكر عندما كان يريد أن يكتب خطابات كثيرة لكل من يعرفهم ولكنه لم يجد كلمات تجيد وصف مشاعره، أخانت الكلمات مشـــاعره أم العكس؟ تلاعبت في خاطره أفكار عن مدى مافعله من ســـوء في اليومين الســـابقين وبدأت في التزايد الخطر، كيف ظلمها وكيف ظلمته، كم كرهها وكره نفســـه.. عيناه لم تظهرا ما جال بداخله، فقط إنعكس فيهما الطريق طويلاً هزيلاً بألوانه البدائية التي غلب عليها اللون الأصفر المائل للرمادي، في انتهاز لعدم اكتمال نشاط الشمس التي تظهر بقية الألوان الأخرى في دفء، إنتبه لصوت خطواته الثقيلة فتباطأ.. أأراد أن يسألها أم أراد أن يسأل نفسه؟ أن يسامحها أو تسامحه؟

أن يتركها أو أن تتركه، مثلما فعلت اليوم، فلا يكون هو الملام في النهاية؟ أو أن تتركه متعلقاً بأشلاء ذكرياتهما معاً ليلوم نفسه في النهاية لأنه رجل، ولأن هذا مايفعله الرجال.. حلت غمامة أخرى من الحزن على سواد عينيه المائل قليلاً للبني، أراد أن يمشي أسرع أو أن يقع الآن في عرض الطريق نائماً أو ميتاً، ولكنه لايستطيع أن يلبي لنفسه أياً من هذه الطلبات..

أراد أن يلمس وجهها وخدها الأيمن الممتلئ بظهر سبابته متحسساً وديانها وجبالها الصغيرة ولكنها ليست معه الآن، صفعت الباب وراءها وفتحت عليه باب حياته وماضيه، أراد أن يرجع لمنزله ولكنه يعرف أن لا أحد هناك، أراد أن يبقى وحيدا في الخارج بدلاً من أن يكون وحيداً بالداخل، شغل نفسه بالتفكير في ما سيذهب له، من دونه هو وفطائره وعسله وقرفته سيجوع أناس كثيرون، وأنه من دونه سوف يشتري الناس أكلا مغلفا فضفاضا سخيفا لايشبعهم.. لم يكن يعلم أنه هو الجائع الحقيقي..

"زوجتي الراحلة، مع السلامة."

وخرجت دمعة لتنضم لطابور العرق والندى في صبر.. وأسرع في الخطى وهو يزم شفتيه في غضب حزين.

(٣)

تفادي بعض الأغصان الجافة في الطريق التي تنتظر الحركة البطيئة على الأرض أو الطيران مع حركات الرياح الطبيعية أو التي تثيرها السيارات اللامبالية، أحنى ظهره المعطوب في ألم والتقط غصناً جافا بيده اليمنى، أخذ يكسره ويلقي الأجزاء التي كسرها حوله وهو يمشي، يعطي الغصن فرصة ليرى حياة أكثر عبر مساحة أكبر بدلاً من الشجرة التي بقي بها طوال حياته، يحب ترحاله ويحب الأقدار التي كسرته إلى أجزاء وألقاها حول العالم، يحب ا... أخذ نفساً عميقاً ليكفي حاجة ذكرياته وهذه الحركات الزائدة من الأجزاء المختلفة من جسده إلى الهواء، ولأن هواء الصباح كان عليلاً ويخلو من شوائب التلوث الحياتي التافه

فإن قلبه القديم استغرب هذه الكمية الزائدة من إكسير الحياة، فزادت دقاته وتتابعت حركاته السريعة داخل غشائه.

تذكر عندما وقف يوماً تحت بيت "هند" محدثاً الرجل العجوز الراقد على دكة البواب الخشبية، بينما كان الأخير في زيارة لعائلته بالفيوم، تذكر ذلك العجوز الراقد على الدكة ذا البطن الكبيرة والجسم الضئيل والملامح الصبيانية الشقية الدقيقة، وجهه غير المجعد كتمثال منحوت حديثاً وإبتسامته المنيرة وأسنانه التي نقصت الكثير جعلته مثل طفل رضيع لايزال يستكشف الحياة، جاكتته الأزرق وغطاء رأسه الرمادي الهرمي الشكل جعلاه يكاد يبعث على الضحك، وحالتهما المقطعة المهترئة تكادان تحثان على البكاء. كان العجوز خليطاً من المشاعر والقصص والنظرات والإبتسامات والدمعات والطعام الردئ والشراب والبرد والثلوج والشمس، ممسكاً بيده راديو أحمر يقربه من وجهه وأذنه فيرتطم بشعيرات ذقنه البيضاء القصيرة، راديو صغير به دائرة سوداء يخرج منها صوت أنثوي رجولي قوي، سأله بابتسامه "مين ديه؟" وأجابه العجوز "ديه واحدة

ست" وأخذ يضحك لدقائق عدة ضحكات قصيرة يُسمع خلالها حشرجة صدره، حتى أجاب مغالباً ضحكه من جهل الفتى "بس مش أي ست، ديه أم كلثوم، صوتها بيدغدغ الفؤاد" ثم سكت لحظات ونظر للشاب باهتمام سائلاً "أنت عارف إيه الفؤاد ده؟"

- "القلب"
- "لأ غلط"
- "طب قوللي.."
- "ممم لأ، هسيبك تفكر وبعدين أقوللك بعد يومين تلاتة"
- "على فكرة أنا مسبتكش.." قالها وهو يبتسم..

نظر العجوز إلى الراديو محاولا الهروب من هذا المأزق ومن ذكاء الشاب في طفولة ثم استسلم، فنظر لعينيه قائلاً "الفؤاد يابني هو الغشاء المحيط بالقلب، وهو يحمي القلب، ولو

ربنا خلق فيه نور ينور القلب هو كأنه بيته، عارف بقى إيه أكتر نور بينور القلب؟"

- "لأ.."
- "سيدنا محمد... يارب ياسيدي تحلم بيه النهاردة" قالها وهو يحرك رأسه في استمتاع..
- "وأنت كمان يارب ياجدو"..

خرجت منه "جدو" في تلقائية شديدة وهو يستعجب كيف يمكن أن تتقارب روحان بمثل هذه السرعة والسهولة، وأن يدعو له رجل يرقد في الشارع بأن يحلم بالرسول.. ودعه وصعد إلى بيت هند الدافئ، شرائط موسيقاها الهادئة ومشروباتها الساخنة، كلامها الغريب ودفاتر تدوينها وأقلامها السوداء الكثيرة، لا تشتري أقلاماً ملونة، تقول أنه بسبب مشاكل طفولة لا تستطيع مواجهتها، كلمته كثيراً هذا اليوم في صوتها الناعم الذي يزداد نعومة ورغبة مع توغل الليل، ولكنه كان صامتاً

مغمضـــاً عينيه ويفكر، في كل ماقاله العجوز، في كل أنوار الروح التي يحملها في بســـاطة كأنه يتعجب من أن البشـــر حوله لايرون مـايراه، البوابات والنور والأذكـار والمعية، ذكره العجوز بالروح الأمازيغية الصوفية التي تركها ويتردد في العودة لها، ذكره بأدعية والدته والشعراء والموسيقي واللغات الغريبة وتاريخ الواحة.. انطبق صـدره فجأة في ألم فاق آلام الفراق والوداع التي اختبرهـا في حيـاتـه، ألم اللهفـة، لهفتـه النواحـة ليعود لمنزله ولأمه، لايعلم ماكان يفعل طوال هذه المدة وهو بعيد.. في الصباح طبع قبلة على جبين هند النائمة ورحل.

(٤)

تدفقت ذكرياته أكثر وهو يمشـــي في الطريق وحيداً، تذكر عندما رقصا معاً، تمايلا بهدوء تشوبه لحظات العنف المرح بينما تتشابك أصابعهما بقوة، لايفصل بين أيديهما هواء، فقط قطرات العرق الشفافة القليلة، أحب رائحتها، استمرا في الرقص على الموسيقي الكونية.. لم يرقصـا معاً ولكنهما رقصـا بداخله، عـانقته كثيراً وعـانقهـا كثيراً، كـان يبحث في عنـاقهمـا عمـا كـان

يشـــعر به مع هند أو بســـنت، عن الذوبان والذكورة والأنوثة وحركات يديها على ظهره، ولكنها لم تمنحه هذا.. كانت زوجته التي يحبها حتى اليوم صـــباحاً، حتى تركته.. لم تمنحه يوماً من الطمأنينة عندما احتاج لها، ثم رحلت.

"سلام.."

كانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي رددها خلفها في صدى صوت لا ينتهي منذ أن رحلت، "وعليكم السلام" قالها أحد المارة الذي يبدأ رحلة الاستيقاظ وتخيل أنه يختصه بها، لم يكن يعرف أن صوتا ما بداخله علا وسمعه أحد، يترآى له من بعيد ما حدث في لقطات الخيال الجامح الذي لا يصمت وهو تائه في عناقها الأبدي الأجوف الذي ســجنه لســنوات عدة، تائه في عينيها باحثا عن حرارة ودفء حتى أحرقته، والآن يمضي راحلاً وقلبه يبقى هناك باحثاً عن قطرات عرق تكفي لإطفاء نيرانه.

رص الفطير بعد أن باعد من عناقه لذكرياته ووصـــل للمكـان، أخـذ ســـور الفطير المتراص بحرفيـة يعلو فوق القفص الخشـــبي الذي يجد واحداً منه دائماً ملقى بلا هدف بعد أن يفرغ منه أحد بائعي التين البلدي الذي لا يحب طعمه. تعلو الفطـائر مثـل ســـور قلعـة يبنيهـا لحمـايتـه من الهجمـات التي لاتنتهي، كـل فطيرة تتراص فوق نصـــفي فطيرتين متجـاورتين أســـفلها في بناء هندســـي محكم، قد يفصـــل بينهما الأوراق البيضـاء أو أكياس من نايلون أو يظلا في تلامس. وقفت على جانبه الأيســر زلعة العســل في شموخ تنعي قطراتها التي ذهبت، والتي ستذهب.

كل يوم تختلف بقعته وعدد خطوات رحلته وإحسـاسـه بقدميه وســرعة دقات قلبه وســرعة رئتيه في اســتيعاب الهواء، وتفكيره في همومه وحياته وحياة الآخرين، تذكر عندما قرر في الصـــباح أن يعيش يوماً بيوم حتى تنتهي أيامه، لايريد الحفاظ على جســـور حياته الموصـــلة بين أعوامه الفائته والقادمة بعد الآن.

كـانـت خطواتـه اليوم أقـل بخطوة، خطوة أقرب لبيتـه، خطوة أبعد عن نفسه وعن رضاه، دمه الكائن الصبور في عروقه منذ خمسين عاماً رافضاً أن يتوقف أو يتجمد مازال يقوم بتدفئته ومازال يجري لاعباً متزحلقاً في قلبه وأعضـــائه، لكم يحتاج الآن لكل من ليس حياً لأن يواسيه ويربت على ظهره المنحني..

"سلام"

كيف تعني كلمة واحدة الســـلام وراحة النفس وتعني الرحيل في نفس الوقت..

"سلام؟"

ينظر أمامه مثل رامي الســـهام من وراء قلعته اللذيذة، يرى أطفال المدارس، هذه الكائنات الشـيطانية الملائكية الهادئة التي تـذكره بكـل مـاهو لطيف وخبيـث كثعلـب وليـد.. كـانوا يعرفونه، كان رفيق بعضـــهم الوحيد ممن لايجد رفقاء آخرون في بدايات السنون الدراسية.

لم يرد الإســـهاب في التفكير في أنه محبوب منهم أو مرغوب فيه، أو في حاجتهم لرؤية وجهه يومياً للشعور بالثبات والإســـتمرارية، ولكنه كان دائم الرغبة في أن يكون مألوفاً، أعجبته الفكرة ورددها وكررها وتعود على جوانبها مثلما تتعود الدجاجات مع حظيرتها الجديدة، وأراحت قلبه بعد أن قبعت بداخله بكل سلاسة.

كان مألوفاً، يرى هذا في عيونهم نصف النائمة وقلوبهم المقبلة عليه في عدم تردد.. الآن تبدأ البلدة كلها في الاستيقاظ البطئ وتصحو لتحيي اليوم الجديد ولتبدد مع الشمس عتمة الليل ووحدة روحه، استراح كيانه لوهلة في وسط كل هذا المحيط المتلاطم من المشاعر وأخذ يكمل استعداده لبيع الفطير.

لايحيطه غموض ولاسواد باقي البائعين، لم يكن أيضاً يهوى جمع المال قبل زيجته الأخيرة التي رمت به في بئر لايوجد بداخله ماء حتى خرج منها متعلقاً بما بقي من ســـلامة عقله ونفسه اليوم صباحاً، لم يكن مثل باقي البائعين باحثاً عن طرق

الخداع والشـــد والجذب، كانت لديه أموال يبقيها عنده من حياته الســـابقة.. كان فقط مألوفاً، وهذا ما يهم، ولهذا أحب عمله حتى بعد كل هذه السنين.

كان بيع الفطير العسلي هو بهجته وحياته، منذ أن رآى أباه وهو يبيعه وذلك أمله وخطته، يتذكر إبتســـامة أمه وعناقها له قبل أن يذهب مع أبيه بزلعة العسـل وشـنطة الفطير متجهين إلى الأســـواق لأول مرة. يتـذكر البـاب عنـدمـا أغلق وراءهما ليفصـــلهما عنها، يتذكر كيف كان يســـأل ترى فيم تفكر أمه الآن؟ هل تذهب في خط مســـتقيم إلى المطبخ لتطهو لهم أم تجلس لتتفكر؟ أو تســـتريح منهم وهي تســـمع الراديو وتدغدغ الســـت غشـــاء قلبها..؟ يكاد يرى ويســـمع أمه وهي تتمايل وتغني.. أراد أن يزورهـا، منـذ زمن طويـل لم يرهـا ولكنـه حر اليوم.. سيذهب ليراها إذا، ولكن هل هو حر حقاً؟

أتى شعور الحرية وسقوط قيوده عنه غريباً ثقيلا بدلاً من أن يســـاعد ســـفينته على أن تبحر، التي خفضـــت أقلعتها

القماشـــية منذ وقت طويل وهي ترســـو على ذلك الشـــاطئ الصخري الرمادي يصيبها الصدأ وأعشاش طيور النورس. حريته مختلطة بالذنب والضـــياع، تمنى لو يكون مســـجوناً أو ميتاً في مقتبـل العمر حتى يتركـه النـاس كلهم مرة واحـدة ويُعفى من رؤيتهم، لا أن يتركونه واحدا تلو الآخر بهذه الطريقة المؤلمة.

"سلام.."

يفتقدها؟ يكرهها؟ يندب ما كانا يحملانه من حب؟ أكان حباً أم كانت سيريالية محكمة من غياهب تجاربه الصبيانية التي اســـتمرت وقتاً طويلاً؟ هل كان مابينهما حقيقي؟ أم كان شـــديد الحقيقة والقوة على أرواحهم المرهقة؟ طفلاها وبيتهما وزرعهما والعناق والرقص الخيالي، الدوران في فلك الكون في البحث عن لذعات الحب المتتالية من نجومها وكواكبه وأقمار طفليها، لم يكن هو، لم يشـــعر أنه هو، بل هي روح غجرية احتلت كيانه واتخذت قراراته.

باع أول فطيرة لرجل يلبس نظارة أكبر من وجه ابنه، يمسك يده في فرض لحماية وطمأنة لايحتاجهما الولد، باعها ونظر ناحية منزله، تفصلهما خطوات عدة، لايريد الانتماء هو إلى مكان وقوفه فقط بل يريد الانتماء للكون والخالق وللبشر أجمعين. تلاعبت بعض الشعيرات القديمة فوق رأسه تحت حركات الرياح مثل خيوط كمان تحت أيدي عازف مبتدئ، أكمل نظراته تجاه بيته وهو يخفض جفنيه العلويين ليقوما بتوزيع دموعه على عينيه الجافتين، ثم أغلقهما حتى يخبئ دموعه التي هددت بالانهمار في أي لحظة.. احمر أنفه الصغير بالتوازي للتعاطف مع عينيه.. تتردد أفكاره والأصوات بداخل رأسه، على الأقل انتمى لكل هذه البقاع في ماضيه، من مكانه هنا لبيته وللعالم الذي سافر له.. وهذا أفضل من أن ينتمي لبقعة واحدة، أفضل من ألا ينتمي.

كتب خطابات اعتذار عديدة على ورق أصفر صغير لم يستحق أحد أن يراها ويقرأها، كتب بخطوط عدة تعلمها من أناس عديدة، خطوط يتزايد فيها الالتواء وتختفي النقاط في

بعضـــها، لغات مختلفة لا يتذكر كلماتها ومعانيها ولكنه كان يكتب في حرقة وندم، كان يتمني أن يرى ورقة صـــفراء مثل وريقاته ملقاه تحت بابه، تعطيه الفرصـــة ليفهم أو تعطيه بوابة للخلاص، ليقطّعها ويصـب غضـبه عليها، يرميها ويقفز عليها، يغرقها في بنزين ويشـعلها ويطيح برمادها في النهر.. كانت روح الطفل الصـــغير التي لايكفيها شـــئ فقط تريد القفز والجري والهروب تظهر من جديد. ترك ورقه في البيت أمام نافذة لم يغلقها قبل أن يرحل، يكاد يراها الآن تطير في أنحاء الغرفة مثل تغريدات عصـافير في جنتها، تطير خارج الغرفة وتفضـح دموعه وإحباطه وحياته للعالم كله، ترك الخطابات كلها وذهب لمكان مألوف له، عالم ينتمي إليه عندما تنبذه العوالم الأخرى، ذهب أمام تلك المدرسة.

"أيمكن أن يجعلِك أحد تريدين ما هو أكثر من الانتماء مثلما فعلت أنا؟"

"سلام"

(٥)

بدأ يتناوب عليه صغار السن ممن يحبون طعم فطائره المحلاة بالعسل ومزيج القرفة والقرنفل والريحان، تحمل الفطائر بين طيات عجينها القليل من رماد سجائره، لم يلاحظ أحد طوال هذه السنوات الفرق بين إختلاط الفطائر بسجائره واختلاطها برائحة عطر أمه.. لم يلاحظوا أيضا أنه ترك منزله نهاراً ولم يعد في يوم ثلاثاء ممطر من خمس سنوات في زفة فرح استمرت حتى الليل، لم يلاحظوا وضوح ثنايا جلبابه لأن أمه لم تعد تكويه، لم يلاحظوا شعره الذي يقل بالتدريج ولايغلب عليه اللون الأبيض أبداً. لم يلاحظوا الاستقلال الجزئي الذي يتغلب عليه في مباراة مصارعة لانهائية النقاط إلى أن يهرب أبعد فأبعد ولايفز أبداً. لم يلاحظوا عدم وجود رقعات جديدة في شنطة فطيره ولا أنه يدير وجهه ناحية منزله الجديد كل بضع لحظات، لم يلاحظوا أنه يفكر في تحطيم عقله ليتخلص من كل ما يذكره بها. لم يلاحظوا كثرة عرقه رغم برودة الجو ولا سرعة تنفسه ولا

دقات قلبه التي يعلو صوتها بالتدريج. فقط لاحظوا أنه موجود، وأنه مألوف، وبالنسبة له كان هذا يكفي.

لم يكن يعرف مبدأ عدم كفاية مايكفي، ولم يعرف حتى مدى صغر ما يكفيه الآن ومدى قربه من الفناء والعدم واللاشئ الجميل.. هو يقبع في لاشئ جميل، كيعسوب يهوي من ورقة شجرة إلى أخرى ، أو كملاك فوق كتف سيدة عجوز ماتت منذ قليل. كثيرا ما أقسم أنه لن يحزن. ولكنه حزين. ينتمي إلى بقعة من الحزن.. ويبيع الفطير.

لم يحب أخوته بيع الفطير العسلي، يتذكر كيف انتظر بفارغ الصبر حتى قوي على حمل زلعة العسل بجانب أبيه ويومها ذهب معه في أولى لحظات فخره وشعوره بالإنجاز، لأنه يرى مالايروه، يرى أفواها تلوك الفطير في تلذذ، عيونا تنظر لبعضها البعض وفيها إيماءات النصر والرضا بجودة الفطير، يرى فخر أمه ورائحة عطرها وعسل نحلهم وقرفة زراعتهم وهي تهوي إلى معدة الآكلين ويسكن جزء منها هناك إلى الأبد، يرى حباً للأكل

ويرى حب الناس لهم وهم يصنعوه. لا يتذكر والده بوضوح لا يعرف لماذا.. يرى فقط جلبابا واسعا وعيونا عسلية وشاربا ضخما، يرى كتفاً يحمل شنطة الفطير ويرى خُفا يطبع مقاسه الواسع على الأرض، يسمع صوتا أجش وصوتا ناعما ومشاجرات، يرى سوطا وخيرزان ويرى نقوداً فضية ضائعة، يرى سريرا ومرضا ومستشفى وسفرا للقاهرة وأكشاك السفارات والمقاهي وأولادا في مثل سنه. ولا يستطيع التذكر أكثر.

(٦)

كانت ممتلئة مثل زلعة العسل التي تملؤها له، تنحني ببطئ، ينحسر أعلى فستانها لأسفل حتى لتبدو وكأنها تملأ الزلعة من ثدييها، كانا يطلان من سبعة الفستان المزُهر في فخر طفولي بكرشهما الخاص الموروث من أجيال أمها وجدتها، يطلان مثل أراجوز يحيي جمهوره من الصغار مشدوهي الأعين قليلي الأنفاس من الانبهار بهذا العالم الساحر الذي يهتز ضمن أمواجه الخاصة في اتجاهات رسُمت له من قبل، تتسع أعينهم وتسبق أيديهم عقولهم لينهالوا بالتصفيق الحار للحياة والكون

وجمال الخلق ولخيالاتهم الخاصة المنطلقة في حرية. يتحرك ثدياها ويهتزان من الداخل إلى الخارج في حركات لا تلتقطها إلا عيناه الخبيرتان. يزداد عقله صحوة وتبقى عيناه في تأهب القطط لتلقط أدنى الحركات من صدرها وعظام كتفها ليكتب فيها أشعارا وخواطر فيما بعد، يحبها، يذكر نفسه أنه يحبها.

أخذت مكان أمه في سلاسة العسل الذي كانتا تسكبانه له كل صباح، مثل لوحة جديدة أو جلبابا آخر أو ذكرى يصححها صديق.. تنحني أكثر أمامه فتمنحه مطلقاً من الفضاء والظواهر الكونية بداخله وداخلها، يعانقها ويقبلها بداخله، يرقص معها بداخله، يحبها أكثر بداخله، يلبس ثدييها بدلا من أذنيه ويدفن رأسه في منبتهما وينام هناك إلى أن يصبح طفلاً من جديد. يحسد قوتها في جذب روحه إلى مكان كوني آخر مثلما تفعل الآن، يمارس حبه وحبهما معا في التلاقي الغيبي البعيد، لا تحكمهما قوة الطبيعة غير الموجودة وتختفي الآلام والأوقات، لايوجد ألم التوقع وألم الذهاب والقرب والبعد والإنكسار، يوجد فقط ألم الالتئام الآن، التئام الذكريات والحياة

التي ستكمل طريقها.. امتلأت الزلعة عن آخرها، واستسلم ثدياها للجاذبية وعادا إلى مكانهما وهي ترفع قامتها في سرعة وحسم.

في بعض الأيام تكون منحنية في البيت أمام أشعة الشمس الهاربة في ظل ديكتاتورية القمر الكامل، الشمس لاتأتي ميعادها حتى ساعتين من الآن ولكنه يرى أشعتها المتمردة وهي تقترب من شعر زوجته، تتسلقه صاعدة نازلة في مرح وترقب، بينما تحيط أشعة القمر الأبوية بالشباك الزجاجي المغلق، تساعده في صد برد الفجر الحاني أحياناً والقارص في معظم الأوقات، مثلها.. حانية قارصة راقصة ناحية آنية آفلة فاتحة فستانها، لا تلمس صدرها أشعة الشمس ولا أشعة الديكتاتور الأبوي، تلمسه فقط أشعة عينيه الذابلة التي تخبو فيها الحياة ولاتحيطه.. لاتجفل عيناها عن عينيه أبداً، تستمران في إرسال المرارة الحانية تجاهه.

"ينسكب العسل الذهبي

ولكن شعر امرأتي،
السابقة،
أكثر ذهبية من عسلي."

(٧)

ازداد صوت خطوات الناس في تعالٍ سيمفوني مغرور على مستوى هدوء الطريق والهواء، يتماسك العسل الذي سقط مع ذرات التراب ليصنعوا قصورا بللورية تسكنها قطرات الندى الهاربة من الأشجار والأعشاب الخضراء، بللور يسكن داخل بللور ويقف أمامهم الضوء عاجزاً عن الدخول، ثم يدخل في خجل مسئذناً، يتشتت ويرسم في الهواء صوراً كثيرة من القوس قزح المبتسم، حتى وإن كان مايرسمه هو فم حزين.. اجتمعت فوق رأسه ومن حوله سحابتان مهاجرتان من مجرات قريبة، كونتهما أبخرة حديثة الولادة ملتوية وجميلة فوق ثلوج أيسلندا وغابات أستراليا، وبعد أن تلاقت السحابتان ومارستا الحب تحت سماء بلا سحب غيرهما، وبعد أن انهكهما السفر وسعار الحب، تجسدا في شكل قطرات المياه الساقطة، التي تذهب

لتغير مصائر الأطفال والحياة على الأرض، لتغير مسار فكره من قوس القزح الحزين إلى ابتسامة غسلت ذاكرته وعناقه وحبه وأخرجت جذور من الود الجديد بينه وبين خالقه.. ثم تبخرت من جديد.

يعدو بعض الأطفال تجاهه في مرح مجسدين الحرية، ويتحرك الآخرون في بطئ حذر حتى لا يراهم أهلهم وهم يبتاعوا منه الفطير في شوق يستمر من الأمس، يحملون كنوزهم العسلية بحذر ويمضغون كل قضمة في تسارع يدرك الإنتهاء المحتم فيتباطئ ثم يختفي، وتبقى الورقة.

بدأت براعم الذكريات الأعمق تنمو تحت تأثير قطرات المطر القليلة، اختفت السحابتان فجأة تاركة السماء لحب جديد وظهرت شمس الشتاء وهي تبدو أكثر إشراقاً وإنبساطاً، لم تُفسد قطرات المياه روعة فطائره المكشوفة، بل أضافت طعماً من الطهارة والربانية لها.. استكان وجهه وأخذ إقبال الناس عليه

يزداد وهو يذهب بعقله لمكان ذكرياته المفضـــل باحثاً عن مزيد من الاستكانه..

(٨)

ظهر ظله كأنه بداية فيلم قصـــير للبحث عن الذات في خضـم الأسـئلة الأرضـية الكثيرة، وقف ينظر إلى الشـمس وهي تتســـارع مغيرة حدة وإتجاه وطول ظله، بان ظله كأنه شـــخص مسـتقل، أقوى وأدفأ منه، ولكنه لم يبال، فقد كان يراقبها وهي تتحرك وتذهب وتأتي، يختلس النظرات لعينيها الصغيرتين ويتعلق بهما مثل حبال قرصـان أعور يتقافز بين سـفينتين، كان يتقافز بين عينيها وهو يشـجع زوايا فمه وفمها لتمثيل ابتسـامة طفولية تنير كونه وتزيد من فرحته التي لاتوصـف بوليدته الجميلة، يتمنى في حاجة حقيقية لأن تبتسم فتبتسم، في طاعة تلقائية، ابتسامة طفلة تبلغ من العمر عاماً واحداً أو أقل، فتزيد ابتســامته ويكاد يرقص من الفرحة.

أرخى قبضـــة يده قليلا فســـقطت منها مفاتيح بيوته المنتشـــرة في البقـاع المختلفـة، لم تلمس الأرض لأنهـا تعلقـت بســلســلة فضــية قديمة الحلقات انحبس طرفها الآخر بين ثنايا راحة يده.. أتت تجاهه، تتكئ على ركبتيها وتوجهها أصـــابع يديها الصــغيرة، لاتتحرك أبداً في اتجاه مســتقيم، يغلب عليها طابع سـائق سـكير، خاصـةً وهي تغمغم بكلام عالمها الخاص، تتحرك في تخاذل بدايات الحياة وينفلت منها القليل من اللعاب وهي تحرك رأســها بســرعة لمتابعة الطيور المهاجرة القريبة فوقها، تنفلت منها عروســـتها القطنية فلا تبال لأنها تتجه إليه، إلى أشــعة الشــمس التي جددت عمر الحلقات ثم انعكســت من عليها فرحة تضئ وجه الطفلة المسحورة، وصلت بسرعة مع أنها لم تكن ســريعة. أحب رؤيتها وهي تفعل أي شــئ، حتى وإن كان غير مفهومٍ له، أكثر من كل شئ.. أكثر من رفع رأسه في الليـالي التي يختفي فيهـا الأب الـديكتـاتوري وتظهر النجوم بهية فرحة وجميلة كأنه يوم عيد، وتســـافر الشـــهب من أحد أجزاء الســـماء إلى جزء آخر وهي تحمل أماني الآلاف الذين رأوها،

كل يوم كان يحدق ويتيه مع حكاوي نجمة جديدة في صحراء طور سيناء، ولم تكن أي منها بجمال رضيعته ريحانة.

ابتسمت له ابتسامة أخرى من قبيل الاستئذان قبل أن تهجم على المفاتيح، يرتفع صراخها ثم يتحول لصمت مفاجئ وضحكات وهي تكف عن الحبو وتجلس فجأة في انتباه، تضع الحب في كل مفتاح تلمسه، تضع اللعب والمرح حيث لن يجدهم أبداً إلا معها، تمسكهم، تنسقهم، تضعهم في فمها وتعض عليهم وتضحك وتبكي، يضع أطراف أصابعه في كوب ماء بجانبه ثم يفتح يده فجأة أمام وجهها، تنظر له غير مصدقة لوهلة وتكاد تبكي وهي تميل برأسها تجاه رقبتها وترمقه بنصف عينيها العلوي مستنكرة ثم تكركر ضاحكة وترمي نفسها على الأرض تحاول طرد قطرات المياه بعيداً عن وجهها الملائكي.. ثم تتذكر المفاتيح فتمد نصف جسدها العلوي وتكمل المسافة بذراعيها الصغيرين لتلعب بهما وهي تراهما من أسفل، ويبتسم فتبتسم ريحانة.. ابنته.

سكنت يده بجانب قدمه وهو ينظر تجاه الشرق، مازال فرحاً كأنما انتقل سُكر ابنته له فغاب عقله في موجة ضبابية من الابتسامات والضحك، أتت أمها تجري نحوه مثلما كانت تحبو ريحانة ابنته منذ قليل، يشعر بالأهمية وينير داخله الشعور بالزهو والرضا والعرفان. أكثر كائنين يحبهما يتواجدان معه الآن، يعدوان نحوه عندما يريانه ويملآنه حباً وعطفاً.. سافرت عيون ريحانته الآن في فضائها الخاص باحثة في جمال الكون التي تراه هي وحدها، أتت أم ريحانة وانطلقت أشعة شمس المغيب في مغامرة خاصة لتثير لون فستانها الأحمر الهادئ الواضح من أسفل عباءتها السيناوية السوداء، تأتي لتمنحه الخلاص حتى وإن كانت مجرد ذكرى الآن، تأتي وهو يعرف وقتها أنه سيحتفظ بتلك الصورة لها للأبد، ولريحانته أيضا.

تمنحه أم ريحانة الخلاص من القادم والمجهول، تبطئ نبضات قلبه المتسارع دائماً، تهدئ من روحه القلقة، تسقيه إكسير الشهوة والحب برائحتها وتذيقه توحد الأرواح في سكينة وحبور. تمنحه التمني والشبق عندما تضع الحبق المجفف في براد

الشـاي ليلاً وهي تمسـح على شـعر ريحانته وشـعره في تناوب أم حنون رشيقة لاتنضب كبئر يوسف.. طعم الحبق ينشط شرايين أعضـائه، واختلاط السـكر والشـاي يلهب قلبه، وعد نفسـه وقتها أنه لن يكسر قلب الغد ولن يكسر الغد قلبه. ولكن الغد كانت له قرارات أخرى.

"أنتِ السلام، حقيقية كنتِ أم خيالا يتبعني
أراك غداً بين يدي
أخبرك
أن روح المروج الخضراء تستقي منك النضارة
وأنت بين يدي
ألعب في شعرك بأصابع قدت من العرفان
والتبجيل
وحيث كنتِ، سأبقى
والليل
والسلام
وريحانتنا.. وأنت."

ترى هل تتذكره؟ في قبرها؟ عندما يزيد ضـــباب الليل وتخفت الأنوار القادمة من بعيد وتصـــبح كدوائر بدلاً من أن كانت نقاط.. هل تبتسم؟ هل تراه؟ هل ستتذكره عندما يرحل إلى مكانهما ويلوح بيده؟.. هل تأتيه عدواً؟ مع كل وعودها الجميلة بالبقاء التي عكستها عيناها الصافيتان الصادقتان، أم ريحانة الجميلة، ومع كل أيامها ولياليها وكل الليالي التي تابعها حتى نامت كالأطفال بين يديه، مع كل خبطات يدها على صدره القوي واستمداد شعورها بالأمان منه.. مع رميها لبذرات البانجو الصفراء على الحطب الذي تأكله ألسنة نيران جنتهما، ومع فرقعات البذور وتبخر المياه من البراد الأحمر القاني الذي يحمل شـــاياً بين جدرانه، مع تنامي رائحة البانجو والشـــاي في خيمتهما المنصـــوبة فوق إحدى تلال ســـيناء واختلاطها بزهر الأفيون الذي تفتحه بيدها البيضـــاء ويشـــمانه في حب.. ترى هل تأتيه عدواً عندما يراها.. أو حتى ببطئ؟

"مع كل تلك اللحظات
يهتاج هواء الحب المسُكر حولنا،

يضمنا إليه فنعوي تجاه القمر الذي يتركنا نفعل مانريد،
ليلتها أزرع بداخلها بذرة ريحانة.
أحبهما.
يحباني.
هم حياتي.
وأنت،
ترى كيف حالك الآن؟"

بعد سنة كانت لاتزال تنظر إليه بنفس الحب، تراقب النيران وهي تنعكس في عينيه المتعبتين، تأتي نسمات الهواء من بلاد أخرى لتعيد ترتيب خصلات شعرها على وجنتيها وتداري ثلث وجهها الأيمن، تسعل من بعيد ريحانة فتكون تلك إشارة لتطفئ النيران بمياه البراد ويشاهدان صعود البخار الحر، يعم الظلام وعيناها لاتغادران عينيه لحظة، تتابع انزلاقهما إلى ذقنها فرقبتها التي تلمع في الظلام على ضوء بعض قطرات العرق الصافي المنزلق، تنبض رقبتها الملساء وأوردتها في رتم راقص، يتحسس بنظراته عظام الترقوة المتواجهتين في شموخ وبروز، ينزلق

أكثر ويرى جزءا من صـــدرها، يعد التجاعيد الطفيفة ما بين ثدييها ليطمئن أنهما ثلاثة مثلما كانوا آخر مرة، تتابعه في خبث وهي تضـــم ذراعيها المفرودتين على صـــدرها في بطئ، فتختفي التجاعيد ويقترب الثديان كجزر يلتئم شملها في نظرة عكســـية لتكوين كوكـب الأرض، تختفي الميـاه بينهمـا ويقتربـان ويعلوان كجبلين حـديثي الخلق بينهمـا وادٍ مقـدس، تقترب من فمـه في هدوء يكاد يغتاله الشـغف والشـوق، تسـعل ريحانة مرة أخرى فيجريان في إتجاه ســـريرها ويســـهران طوال الليل بجانبها حتى تتوقف عن السعال، وتنام مطمئنة لوجودهما. يختطفان القبلات طوال الليل، يمســـك يدها اليســـرى ومرفقها الأيمن ويدعكهما براحتي يديه، أحب ذراعيها أكثر من كل أجساد نساء الأرض مجتمعات..

"سحابة عقولنا أمطرت حباً
وأنت تذوبين
في حضني،
جلستِ بجانبي ننظر لزرعات الزيتون والزعتر

والنخلِ
قدماك بهما نقوش
يداك ناعمتان كنور الفجر
يقل خوائي عند ذكرِك
ويقع في بئر احتفالي كبير..
روحي قرب روحها أقول للبئر
شعري يلمس شعرها أقول للبئر
أتمدد داخلها وتنكمش هي داخلي
أقول للبئر..
ثم أقول لك،
أنت بئري وغطائي
ودلوي وحبلي وسماء مائي
ومجددتي
وزعتري وريحاني
وأمي وزوجتي وفضائي..
فمي يلمس فمها أقول للبئر

شعرها يطير فوق أرض شعري أقول للبئر..
وتستند على كتفي
وتقبله،
تمتص رحيقي القديم وتعطيني من الجود
ما يبكيني،
في سعادة..
تخلع عني ملابسي أقول للبئر
أخلع عنها ملابسها أقول للبئر
والباقي لا أقوله،
فالباقي لي وحدي
والآبار لا تحتفظ بالأسرار طويلا..
ينظر القمر من بعيد في عفة
وأنظر
وتنظرين
نشتهي
نموت

نعود للحياة
أفرغ قلبي في قلبك،
نشهق
نموت
نتمنى
نولد من جديد
نتصلب
نتجدد
ننصهر
نلهث
نحب
نشهق
وترقدين..
تنامين أقول للبئر
وأنسى أن أقول له إنني سأنام أنا أيضا
وأنام،

أحبك حتى إن أموت

..

مِثلك"

(٩)

اخترقت خلايا أنفه رائحة شاي مُعد بالحب لتوقظه من سباته النهاري وذكرياته، شاي النعناع الذي يجد قدحا كاملا منه كل يوم مسنوداً على شنطته في أكروبات خاص وجميل، يؤدي ميل القدح الأكروباتي وميل السائل الدافئ بداخله واتجاه نسمات الهواء إلى انبعاث موجات صامتة من الرائحة الجميلة تجاهه وناحية فطيره الراقد في انتظار غير متعجل.

يحمل في جيبه الأيمن ملعقة خشبية عتيقة طالما أحبتها أمه، أخذها يوم غادر المنزل، تستعمل تلك الأداه القديمة في حمل العسل من الزلعة حتى يصل إلى الفطير المطلوب بيعه، ينوم العسل الشعيرات الخشبية الهاربة على سطح الملعقة فتعود لمنزلها وتغط في عمق، تميل الملعقة إلى أسفل مع ميل يده اليمنى فيغادرها خيط رفيع من العسل إلى الفطير المتلقي لهذا الذهب

المهاجر، ينكسر خيط العسل على سطح الفطير ويصنع أبراجاً حلزونية لانهائية تظهر لها بروز لحظية وتختفي سريعاً، تتسع الأبراج من أسفل فتهبط قمتها وتتحول لبحيرة ملساء راكدة تخترق الفطير إلى أسفل.. تتحرك الملعقة الخشبية إلى الفطيرة التالية فيصنع العسل طريقاً يصل كل الفطائر ببعضها البعض كنهر متعرج يصل أرحام مملكات أسطورية وأبراجا قديمة ومدنا تختفي تحت سطح رقائق الخبيز الطازج.

يلمس بيده مزيج القرفة والريحان ويجعله يتساقط من علٍ كثلوج خضراء وبنية على بحيرات العسل فينغمس فيها وينطلق طعمه في كل الإتجاهات سريعاً، يُجمل اللون الذهبي للعسل على الفطير ويزيد البحيرات عذوبة. تكتمل الحالة الروحية للفطيرة فيبيعها ويبدأ في إعداد الفطيرة التالية.

أحب الناس لقلبه هم الصغار غير المتعجلين، الذين يشاهدون الملعقة الخشبية تلد العسل ببطئ ويشاهدون ذرات القرفة والريحان كمن يشاهد نفس المسرحية يومياً ولايمل، لأنه

يعلم أحقية هذه المسرحية في الحياة والتجدد. ينظرون في خشوع وتأمل، يرونها كما كان يراها وهو صغير، يعرف أن للصغار طرقا مختلفة لرؤية الأشياء وهي تنعكس على أعتاب مخيلات مملكاتهم المحصنة ضد عبث الكبار، يشعر بالشكر لأنه غير رصين وغير متزن مثل من يدّعون الاتزان، فخياله وعشق فنه يجعلان لحياته أهدافا كثيرة غير جمع المال. يشكر لأنه يستطيع أن يلمس قلوب هذه الأجساد المرصوصة مثل بحر تتتابع أمواجه على شاطئ قفصه وفطيره، وتنحسر عنها في رضا وحرص على الوليمة الصغيرة التي يحملونها، يريهم عالماً آخر من التأني والفن القديم وروح الأمازيغ، ينير مناطق خاصة لاينيرها المدرسون ولا الآباء، ينير الاستمتاع بما هو صغير وما يشاع عنه أنه غير كافٍ.. ينير التأمل، فمن يتأمل في فطيره سيتأمل في حصى الأرض ورمالها وسحب السماء ونجومها وطوب البيوت وما التف حولها من زرع.. إنهم يرون الآن ماكان يراه مع أبيه منذ سنوات كثيرة، يُعجبون باللحظة ويقعون تحت طائلة سحر الموقف وعبقريته البسيطة.. وتتسع الدائرة حوله ويزداد أفرادها.

كانت رحلته تكمل أطوارها مع بعض زبائنه المخلصين، يستريح ويتركهم ليضعوا العسل على فطيره، ويأخذ هو دور المشاهد وهو يراقب انطباع روح الأطفال على العسل النابع من بين أيديهم فيزداد نقاءاً وحلاوة، يضعونه بلا تعجل كتلامذة حقيقيين يطبقون درساً عملياً في الإعجاب بخلق الله وبساطته، يمسك بأطراف كوب الشاي العليا ويسند قاعدته على يده الأخرى فيصنع جسده دائرة تستمد الدفئ من الكوب، ثم يسارع فيرفع الكوب لفمه ليدرك الدفئ قبل أن تسرقه أطرافه من باطنه، ويغمض عينيه وهو لايزال يتابع الصغار والآباء والأمهات بقلبه.

أحب أمه وعرف الهوى على يديها، أحبته أكثر مما يستحق أي ابن لحب أمه، حب خالص لا يخالطه شعور الذنب، علّق قلبه على حبال حنانها حتى يجف كل ما علق بقلبه من بلل وتلف الذكريات، يأخذه بعد مغيب الشمس ناصعاً جديداً.. تمسك يده في أيام العيد صباحاً وتريه كيف يرفعها أمامه وتصلي معه وتدعو وتجعله يدعو الله معها، تعلم

الاســـتخارة والتوكل والمعية منها، أن يكون الله معه دائما، وأن يراه في كل ماحوله، يرى صـــفة الجميل في بلح يميل للحمار القاني يومياً، يرى الصبر في الطوابير، يرى الكرم في جيرانه الذين مُنعوا من نعمة الأولاد فاعتبروه ابنهما يعطيانه حلوى التفاح العســـلي وفطائر الجبن والزيتون، يرى الحنّان في والدته.. أحبها كثيراً، وأن يحب شـــخص بيت الحب ويعلمه بيت الحب إله الحب فتلك سموات كثيرة من الحب تتراص وتختلط و تعيد تمثيل وجوده الطيني إلى كائن أسمى.

يرتطم بخار الشـــاي بوجهه فيفيقه قليلا من خبايا عقله وذكرياته، لا يعرف مالذي يحدث اليوم، بدأ يخاف تتابع الذكريات التتارية على وعيه ووجدانه، هل يموت اليوم؟ ازداد قلقه وانقباضة رئتيه على فؤاده المظلم. تُمثل له ذكرياته وحكاياته ضوء فنار بعيد يهديه إلى الشاطئ لينام إلى أن يأتي يوم آخر، ولكنه اليوم يستعيد ذكريات طائلة بدون حتى أن يحكي لأحد، ففي جلسات يعرف أنها ستحدث صباحاً يلتف بائعون آخرون وسكان قليلون حوله وهو يحكي ذكرياته وذكريات ناس آخرين

يتذكرها بالمصادفة وهو يحكي، يحب الناس جلوسهم إليه كما يعترف له البعض، يعيشون مع حكاياته كأنها تحدث لهم.. ولكن اليوم؟ لماذا يحكي لنفسه؟ هل يواسيها؟ هل يرى وجهه كما رأته صباحاً قبل أن تغلق الباب وترحل؟ هل ستعود؟ هل سيعود هو إلى ماكان؟ غامت غمامه الحزن على عينيه من جديد وهو يرى صوراً تتحرك لها وهي تصرخ وتهدده بالذهاب بلارجعة وهو يرتمي على شبكة سيرك بها ثقب واسع فيقع وتتكسر عظام صدره، يتبلل قلبه في مستنقعات اللاشئ فيمده باحثاً عن حبال ينشف عليها ولكنه يجدها هي، تمسك مقصا وتقص له حباله وريش روحه وذيل حريته فيقع أكثر.. يصفق الحضور في خوف على لاعب السيرك الساقط وهي تمسك بيد طفليها مهددة أكثر بالذهاب بلا رجعة فيحتويها بذراعيه، وبعد فترة ينفرج ذراعاه فيجد أنه احتوى هواء.. تقف ورائه وعلى وجهها دموع اللوم التي يتقطع لها قلبه، لم يخن حبها يوماً، فقط انهارت في يومٍ ما فقرات ظهره فلم يستطع ممارسة حبهما المندفع العنيف مثلما كان يفعل ولم يستطع أن يعمل

كثيراً ليوفر لها احتياجتها المتزايدة. كان يزود هو حياتهما بحبه وممارسة حبهما بحبه أيضاً فقد كان يحتوي قلبه على الكثير من الحب، أما هي فلم تشـــعر ولم تضـــع يوما حبها المختبئ بين ضلوعها الشريرة في طبق حياتهما السطحي، ورحلت.. تترك له آلام ظهره وحبه الضـــائع وذكرياته المتتالية التي ترعبه اليوم، لا يعرف إن كانت ترعبه لكثرتها أم لعدم قدرتها على تذويب مرارة قلبه.. لن تكون أبداً مثل أم ريحانة.. ومع كل دعواتها التائهة بأن يكونا نصـــيب بعضـــهما البعض اللانهائي رحلت وتركت دعواتها الذابلة التي لم تصعد يوما للسماء..

"سأذهب
لا تذهبي،
سأمضي
لاتمضي،
سأعود...
لا تعودي"
"سلام"

(١٠)

يهرب من أفكاره ومن احتمالية كون اليوم آخر يوم في حياته إلى تدافع التلامذة الصارخين وأولياء الأمور المدعين الهدوء حوله، يرغبون في معاملة خاصة كسائر البشر، يرى جميع الوجوه آتية ناحيته، العفيفة والغنية والفقيرة والحالمة والمنطفئة والسارحة والمحبة والكارهة والناقمة والساهرة والنائمة والمتحمسة والمقلّبة في عينيها باستمرار والماهرة والذكية والمدعية الذكاء، في تلك الدائرة التي تتكون حوله وتكثر وتخبو كان يرى العالم أجمع. تتسع الدائرة أحياناً بالطول والعرض فتصنع أشكالاً بيضوية تحت عيون السماء والنجوم المختفية في عباءة أشعة الشمس، ثم تضيق وتختفي وتتحول لأفراد هائمة نحوه وبعيدة عنه.

يقترب الناس من بعضهم البعض دائما بداخل هذه الدائرة مادّين أيديهم تجاهه وهي تحمل النقود، وللحظات قليلة يتوحد وعيهم لخلق وعي واحد ويتجه صاعداً إلى أعلى وإلى بعضهم البعض في تلك الدائرة المجيدة كدوائر الذكر الصوفي..

يسرع في سكب العسل أحياناً لحاجة التلاميذ في أن يلحقوا بأبواب المدرسة، تقل الدائرة في سرعة وتنتقل لتشكل نصف دائرة جديدة أمام باب المدرسة الأخضر، يرمقهم حارس المدرسة وفي أيديهم فطائرهم في لامبالاة، يدخلون واحداً تلو الآخر كلاجئين يعبروا من ثقب الأسلاك التي تفصل بلدين غير شقيقين، يدخلون ويتركون أهلهم الشاكين من سوء الأحوال والعارفين بعدم جدوى المدارس، لا يعترفون بهذا أبداً في صوت يعلو عن سطح عقلهم الباطن.

يبقى حوله بعضاً من أولياء الأمور بعد اختفاء الأبناء والبنات، يعامله بعضهم مثل ساقي حانة خامل، يشكون له الحياة ومساوئها ولا يتكلم أحد أبداً عن المحاسن، يزايد بعضهم على بعض في أيهما يعيش في حضيض منخفض أكثر من الآخر، يتشاجرون ويضحكون ويتصالحون، يستمع هو كل يوم باحثاً عن قصص شيقة جديدة ولايسدي النصائح أبداً.. علمته أمه ألا يسدي النصائح لأن البشر لديهم وجوه كثيرة للنظر للصواب والخطأ وما يجب فعله ومايجب الامتناع عنه.

يتصـــادم بين الناس إعجابهم الفاني بأنفســـهم وآرائهم البالية الســـخيفة، ينظر بعض العاقلين إليهم في شـــفقة هم أولى بها، ويتبادلون أماكنهم بعد يومين أو ثلاثة، فيصبح المتشاجر عاقلا والعاقل متشـاجرا ويكملون اصـطدامهم ببعضـهم البعض وهم لايعرفون بعضـــا.. لايدّعي أنه يعرفهم ولكنه يرى منابع آرائهم واختلافاتهم في وضوح.

اليوم يرشف شايه وهو سارح في أموره الخاصة، يستدير لعم عبده الذي يعد له هذا الملاك الدافئ يوميا ويســـنده على شنطته، يبتسم له محيياً لفضائله وشايه الحنون، يجلس عم عبده خلفه على اليسار قليلا حتى تتسنى لأشعة الشمس أن تصيب وجهه المجعد فينيره كله وتختفي تجاعيده، يجلس على الرمال وأمامه "ســـبرتاية" وبرطمانات من الســـكر والشـــاي والنعناع المتجاورة في أنس.

مازالوا يتكلمون ويتشـــاجرون، قد يمنحهم بعضـــاً من الفطير إذا طلبوا ولكن بعد أن يرفع الزلعة وازناً مابقي بها من

العسل حتى يتأكد من بقاء بعض العسل لزبائنه الصغار الذين يفضل بعضهم في ادخار الفطيرة المقدسة لما بعد انتهاء يومهم الدراسي.

عم عبده مثله هو ولكنه أكبر سناً، يختلف عدد خطواته كل يوم هو أيضاً فتارة يجلس قريباً منه وتارةً أخرى يكون بعيدا، ينظر للحياة باستخفاف العجائز الحكيم، مضحك هو وسريع البديهة وسريع في استنباط النكات والمزاح من المواقف وكل مايقال حوله، يجعله يدمع من الضحك في مواقفه العدة وقد يصيب معدته بوجع شديد يماثل انقباضة صدره الآن.

يتكلم عقله أحياناً مذكراً إياه بإحدى نكات عم عبده فيضحك وهو وحده لمدد طويلة. اعترف له مراراً أنه يتقن استحضار روح الشاي أكثر من والدته، فيضحك عم عبده في زهو طفولي.. جميل عم عبده، هادئ ولكنه لايخلو من طموح دائم الاشتعال في تصالح متأخر مع ماضيه الأخرق، كان سجيناً

منذ زمن بعيد وخرج إلى حرية لم يريدها، لم يكن بريئاً ولكن لو يعلم شـيوخ القبائل مدى مايعانيه من ندم مؤلم لأشـفقوا عليه ولتركوه يذيب أحزانه مع الدوامات التي يصنعها بملعقته الفضية وهو يقلب أكواب الشـاي، لتركوه يدمي جبهته في حوائط بيته ويرسـم بدمائه لوحات للاسـتغفار والتوبة، ولتركوه يبقى حراً عارفين بسجن روحه الدائم الذي لاينصلح حاله بطول السنون التي قضاها في السجن..

يعد القضبان وتعد القضبان سنوات عمره ويحلم بالموت أكثر من حلمه بالنسـيان، يصـفق السـجناء ويغنون ناعين سنوات عمرهم وضياع الحال، والمحكوم عليهم بالإعدام يرقصون في جنون لايتوقف في زنازينهم، ويبقى هو جالسـاً في الظلام يبتسـم حتى تلتقط زوايا فمه ما يتسـاقط على وجهه من دموع ساخنة. لو يعلم القضاة والشيوخ لتركوه يُضحك الناس حول حلقات السـهر ولتركوه يجعل من أوجاعه مايضـحك ولا ينجيه أبداً.. ولكنهم لم يتركوه.

كان سجين روحه وضحكاته منذ زمن طويل، قصير القامة هو ومحني للأمام ولكنه سريع الحركة ومتقد الذهن، كان له حلمه وعالمه الخاص ووجوده الثمين بين كل من يراه ويجلس معه، يسمعه دوماً يقول إن الكوب الزجاجي، على عكس الظاهر، هو قلب المشروب الجيد. كان يسكب الشاي في بطئ هو أيضاً مثلما يسكب صديقه العسل على فطيره، يترك الهواء يغادر الكوب الذي كان يحتله من قليل في بساطة وفرح بقدوم أحمر وأسود الشاي المثير للخيال، كان يضع في بعض الأيام أو المناسبات الخاصة ماء الزهر والنعناع أو المرمرية في أكواب الشاي ويفاجئ كل زبائنه بهذه العطية المفرحة. يعيش كل من يعاشره روحه الصغيرة ومزاحه المتكرر وفضحه لأسرار الناس بسلاسة وعدم حرج قبل أن يضحك باستمرار.

قصير ويغطي رأسه الأصلع بغطاء مربع بني عليه نقوش بيضاء وزرقاء، ينتظر ساعات طويلة محملقاً في التراب والرمال أمامه وهو يسند ظهره على بيت من البيوت القديمة حتى يفيقه أحد من غيبوباته المتصلة فيرد عليه السلام بصوت عالٍ رافعا

يده اليسرى وهو يصرخ شيئاً روحانياً شديد التلقائية مثل "كن مطمئناً" أو "كن جميلاً" لكل من يقابله، يدعوهم لكوب الشاي، يقترب من الأشخاص القريبين منه ويهمس لهم مزحة خفيفة يضحكون لها ويشعرون بالدفئ لفترة قصيرة. قد يهمس لنفسه بمزحات ويضحك عليها فجأة، يعرفه الناس فلا يشكّون في سلامته العقلية، يتحرك بسرعة عند سماع اسمه ويرد بسرعة عندما يخاطبه الناس، يسأله بعض المارة الشباب في مزاح "أهم حاجة إييه ياعم عبده؟"

فيرد في سرور "أهم حاجة كن مطمئناً! كن مطمئناً!"

(١١)

ينتقل عقله من عم عبده ليذهب بعيداً في مجراته ونجومه التي رآها مرة عند أحد الأصدقاء الذي كان لديه تليسكوب لجده، الطريق اللبني والنجوم التي تحترق وهي تشهد كل ذكرياته وفصول حياته.. هل يموت فعلاً اليوم؟ استعجب سؤاله الآن ونظر لعم عبده فضحك الأخير مطمئناً لشكّه بما يجري في وجدان صديقه، سيسأله عن طرق سريعة لمسامحة النفس بعد

ماحدث له صـــباح اليوم، يطمئن للفكرة قليلاً فينتظم تنفســـه وهو يدخل في حالة شبه نائمة، يقل عدد الشاريين حوله وترتفع الشـمس معلنة قرب الظهيرة وهو في حالة سُـبات هادئه، تهرب صـــراعاته الداخلية من الشـــمس وتدخل تحت بعض الذكريات الجميلة باحثة عن ظل، يزداد ســـباته عمقاً.. لن يموت اليوم.. هو يحب الحياة ولن تكرهه الحياة.. لن يموت اليوم.

"حياتي
مشاعري
أخطائي
لن تتخلي عني
ستبقي مع حبي.. ستبقي معي"

تذكر عندما مشـــى في إثر رائحتها المهيبة بينما تتنزل حولهم الثلوج، مزيج من الكرز ورائحة صـخور الشـاطئ المبللة، نزل السـلالم ماشـياً خلفها وأغمض عينيه وترك لأنفه الصـغير اليد العليا في توجيهه وبدء خيالاته.. تقع حبات الكرز علي

صـــخور الشـــاطئ وتتســـبب في قفز قطرات فزعة من بلل الصخور، تتبخر تلك القطرات التي لمست الكرزة عندما كانت تقفز لأعلى آخذة بضـــع من رائحتها ثم تصـــبح ذرات مجاورة لـذرات الهواء وتـدخـل أنفـه دخول شمس المغيـب في الغرب المنتظر.. أغمض عينيه وترك لقدميه تحسس السلالم نزولاً وراءها ووراء حيوانيته المكتشفة حديثاً.

في مارسيليا كان.. أمام أحد البارات التي تملك سـلالم متجهة لأســـفل، وقفت مترددة لحظة وكاد أن يرتطم بظهرها ولكنه فتح عينيه في آخر لحظة، أخرجت علبة ســـجائرها وهي مازالت تقف على الســـلالم مترددة لايعلم لماذا، يرى شـــعرها المجدول خلفها، لا تشـــعر بوجوده، يشـــعر بها هو كأنها هي وجوده كله، يسمع صوت الولاعة وأنفه يتشمم رائحة جديدة بينما تهبط هي برأسـها لأسـفل لتقرب سـيجارتها من الشـعلة الصغيرة.. رائحة شعرها، مثل جدول ماء في صحراء الأمازيغ تحيطه رائحتها ووجودها المسُكر، كان على مقربة خطيرة منها، تلك الفتاة التي لا يعرفها، لايعرف حتى كيف وصـــف وجهها

ذلك اليوم.. الفتاة ذات الجاكت الجلدي الأحمر والشـــعر البني المجدول والبنطال الأزرق الضيق عند الساقين.

انتشـــر دخـان التبغ المحترق وهو لايزال مطلقـاً العنـان لأنفه، تشـــمم صـــدره الكثير فســـعل فجأة ولكنه داري وجهه بذراعه، هرب منه جزء ضئيل من السعلة ولكنه كان كفيلاً لأن تستدير الفتاة نحوه في دهشة، جرى صاعداً ولم ينتظر ليتأسف أو حتى ليرى وجهها لتكتمل ذكراه، جرى في الشـــوارع المبللة ووصل لمنزل "جون بول" سريعاً وهو يلهث، ضحكت "ماريسا" العمياء وهي تتشـــممه قائلة إن رائحته كرائحة خطايا الصـــبية الصغار الغبية، كان اليوم يتم عامه الرابع عشر.. ويالها من بداية حياة، حياة تلخصـــت في رحلة الهيام اللحظي التي كان يعيش فيهـا منـذ قليـل.. الفتـاة ذات الجـاكـت الأحمر والشـــعر البني المجدول التي تبقت فقط رائحتها، واختفى الباقي.

فتح عينيه لوهلة ولم يجد أي أحد حوله، فرغت دائرة النـاس المزدحمة وانطلقوا في أرض الله، من خلال نـافـذة جفنيه

رأى رمالاً ومبنى المدرسة القديم، رأى عم عبده يعدو في اتجاه عكس شعاع نظره، لايعرف لماذا يعدو، ولكن سلاما نفسيا غير متوقع أصاب روحه فأخذ نفساً عميقاً وأكمل سباته.

كيف ذهب إلى مارسيليا؟ كان يلعب حول أمه ماسكاً أغصان شجر الليمون وهي جالسة تخبز في الفرن الصغير، ماسكة بيدها الملعقة الخشبية وهي تقلب العجين الأبيض، كان ينظر لأمه من حين لآخر يطمئن لوجودها، عمره ثلاثة عشرة سنة ولايزال يجري كأن عمره سنتان، يستمتع بالهواء النقي والرمال والعيون العذبة في الواحة.. كيف رآه جون بول أول مرة؟ كيف وجد فيه ضالته؟ كان فنانا قديما يبحث عن أشياء قليلة بحياته أو شيئين على الأخص، عن عمل فني جديد، إلهام وليد يجعله يبدأ في هجرته على طريق استنزاف حواسه ليخرج مُقطّع الريش أحمر البدن كدجاجة وليدة لاترى ولاتدرك جمال العمل الفني الذي قامت به إلا بعد فوات الأوان، و الشئ الآخر هو بحثه عن طفل له ولزوجته ماريسا.

أرادت ماريسا طفلا بشدة، تشمه، تسمعه، تراه.. تحبه وتشعر بحبه.. قبل سنوات كان زوجها صانع تماثيل على أعتاب الشهرة، تعارفا في معرض من معارضه التي ستضعه على طريق الشهرة لاحقاً في بودابست، لمست تماثيله بأناملها بعدما أغلق المعرض أبوابه بعد منتصف الليل، أحبت البقاء بعد أن يذهب الجميع، تسمع لمسات أطراف أصابعها وهي تحتك بالقليل من البروزات في التماثيل، يعتبر البعض البروزات عدم إتقان في التمثال ولكنها ترى في كل عدم إتقان طريقاً واضحاً يثبت أن الفن هو الحياة، لأن الحياة نفسها لاتكتمل أبداً.

وقفت تتحسس تمثالا لطفل رضيع يمسك بفوهة بندقية جندي ويسدها حتى يحمي من ورائه، أمه.. رآها "جون" غائبة عن المكان والزمان فاتجه إليها، رآها وعرف في لحظة أن لقلبه طريقاً آخر غير الفن، طريقا أعمى أسمر اللون وذا قامة قصيرة جميلة وغطاء رأس متناسق الألوان مع حياته وشعوره وشعورها. عرف يومها أن قلبه سيخونه دائماً مع دقائقهما الأولى والأخيرة ومدى حياتهما، عرف أنه قلب ضعيف وأنه يحلم برؤى

مســـتقبلية مســـتقلة عن عقله وأنه يعلم جيداً ماذا يريد.. علم أيضـــاً أن قلبها يوافق عليه بشـــدة، وبعد قليل كانت تتنافس صدورهما في إخراج الهواء وإدخاله وهما على سرير واحد يمارسان الضحك وشرب النبيذ وأكل الجبن والخبز بنهم.

تحســـس قلبها قلبه، اقتربا، أصـــبحا قلباً واحداً يحارب الألم ويستمتع بالضحك والحب، تتحسس تماثيله فتكون آراؤها أصوب من أي عدد من العيون، أحبها أكثر من فنه ووهب لها كل تماثيله ولحظاته المجنونة، الحديثة والقديمة، والمســـتقبلية التي يفكر بها من خلال دخان ســـجائره وهو راقد بجانبها على سريرهما المخملي..

تسأله وهي تمسك حلمة أذنه في دلال ومرح:

- "كيف تهدي لي شيئاً صنعته قبل أن تعرفني؟"

- "لأنني خلقت لأكون معك، روحي ولدت بجانب روحك فألهمتها فني قبل أن أولد وأنا للأبد شاكر لهذا.."

يقولها والجدية تعبر وجهه بسرعة ثم يبتسم بينما تدمع عيناها في تأثر وتختنق كلماتها بداخلها فتختفي، تمد يدها لتلمس تجاعيد وجنته التي تحفظها كطالب يمتحن نفسه يومياً، يقبّل يدها ويميل ناحيتها، يحتضنها حتى يختفي رأسها الصغير في صدره فتكاد ترى قلبه وهو يوقظ عينيها بضرباته وحبه.

بعد سنتين أرادت ولداً، خاف للحظات أن تكون ملّت تماثيله وحبه ولكنها لم تملّ، على النقيض فقد كانت ترى الحياة الآن جديرة بجلب روح جديدة لتعيش فيها، روح تغامر في الحياة التي رأتها مظلمة تماماً قبل أن يضيء لها جون شمعدانا قديما كانت قد نسيته بداخلها، أرادت تحسس وجه شبيهها الصغير لحاجتها لرؤية طفولتها القاسية بشمعدانها الحالي، أرادت طفلاً لأنها تريد لمس تفاصيل وجهه أو وجهها.. يحيطها أكثر بحضنه حتى اختفت كلها بين ذراعيه..

"أحبك"

حاولا كثيراً خلق طفل بين جسديهما ولكنهما لم يستطيعا مهما كثرت المحاولات، وغير كل الأزواج لم يبحثا ويتباحثا عند الأطباء وماشابه، فقط قررا التبني في ليلة صيف قمرها كامل.

كيف ذهب إلى مارسيليا؟ رآه جون بول عندما قرر هو وزوجته الذهاب إلى مصر لأن ماريسا اشتاقت لها ولهوائها، أتت مرة عندما كانت صغيرة مع خالها الذي كان يجري صفقة ما وأحبت البلد، وفي رحلة "ماريسا" الوجدانية لتعيش طفولتها من البداية مع زوجها الحاني قررا الذهاب لمصر، ينشرح قلبها الجديد وقلبه المتجدد، يملكان قلوبهما وقلوبهما تملكهما.. وجاءا إلى موطنه.

(١٢)

مرت "سعدية" من أمامه وهو غارق في محيط ذكرياته، آفل كشمعة انطفأت قبل بداية الخلق، تنفسه منتظم وأمامه قفص خشبي يتراص عليه الفطير وبجانبه زلعة العسل وفي الجانب

الآخر كوب من الشـــاي، يكاد يكون فارغاً إلا من رشـــفة أو اثنتين على الأكثر، أتت "ســـعدية" إلى البلدة منذ أســـبوعين، تعيش في بيت أبيها القديم بعد أن تركها زوجها ســـاعياً وراء غانية وسافر للأسكندرية، تبدو عليها أمارات التعب والارتياح، كرهت زوجها الذي كان يضربها يومياً بحذائه ويديه، لديها ابنة صغيرة أحضرتها لتعيش معها في سيوة بعيداً عن زوجها المعتوه.. كانت "سعدية" ترى بائع فطير العسل كل يوم، مرات يضحك ومرات يجلس يحكي في حماســـة لاتنقطع ولكنه اليوم مختلف.. لاتعرف لماذا ولكنه حقاً مختلف.. تتصـــاعد منه أبخرة الحزن والرغبة في النســـيان، أبخرة أســـئلة الحياة كلها، حِمل كبير على رجل واحد عشقه الأزلي هو إطعام الصغار من فطيره العسلي.. تسمع بعض الناس في السوق يقولون إنه ليس فقيراً، وأنه يملك أموالا كافية لأن يقضـي بقية حياته بدون عمل ولكنه يحب بيع الفطير، يحب الحياة البسيطة والرضا غير المعقد. كان رجلاً مثير الاهتمام بجلبابه الأخضـــر الغامق الواســـع كخيمة تحيط به من

كل جانب، ولون جلده الأقل سماراً عن بقية أهل البلدة.. ولكنه اليوم مختلف..

(١٣)

رآه جون عندما كان صغيرا، ورأته ماريسا أيضا! كان صغيراً وضئيل الحجم نسبةً إلى بقية أصدقائه وأخوته لأنه لم يكن قد وصل مرحلة البلوغ بعد، ومع نظراتهما المشتاقة وحبهما له وحبه لهما وانبهاره بملابسهما وشكلهما الذي لم تعتد البلدة رؤية مثله منذ الاحتلال.. أخذوه.. !

توسلا لأمه في شدة وكانا يزورانها يومياً وماريسا تلح على جون طوال هذه الفترة، تعهدا لأمه أن يرجع قبل أن يتم العشرين وتعهدا لها أن حياته ستكون أهم لهما من حياتهما الخاصة، ووسط دموع كثيرة وعدم وجود فترة كافية لاستيعاب المستقبل وغرابة الموقف واستنكار الواحة كلها واحتياج أمه لنقود لتزويج أخوته ولتعالج أباه في القاهرة، ومع تعهدهما بأن يأخذ قسطا من التعليم الجيد وخبرة حياتية مختلفة تفيده عند

عودته لمصـــر، ومع نظراته الراغبة في الذهاب لهذا العالم الغريب وروح الاستكشاف التي ولدت باكرا بدواخله وتهافت قلبي جون وماريســـا إليه، ذهب.. بكاء أمه حزناً اختلط به بعض البكاء فرحاً وهي تقول في صوت خافت "ابني هيمسك منصب كبير لما ييجي، ابني هيبقى بيه".

لم يكن كامل الإدراك أنه ســيخرج خارج بلدته وبلده، ســـافر إلى القاهرة ليرى أباه مرة أخيرة قبل أن يذهب. دخل "جون" و"ماريســـا" إلى ســفارة قريبة من المســتشــفى، نفس السفارة التي كان يقفز أمامها مصيبا الحراس بالفزع. ابتسم وهو يرى السفارة..

ســيفتقد أمه.. الكثير من إخوته ســـافروا منذ زمن إلى بلاد الخليج فلن يفتقدهم، ســيفتقد أمه وفطيرها وجلبابها الذي طالما مسح به دموعه ويديه، سيفتقد أمه الباكية وهي تلوح له، سيفتقد أمه التي تعدو وراءه ثم تمسكه ويضحكان.. لكنه شاكر إلى الآن روح المغامرة التي أصابتها يومها، شاكر أنه سيرى عالما

آخر يتذكره وهو جالس أمام المدرسة.. لايلوم أمه على هذا اليوم، تعجب كل أهل البلدة على قرار أمه بالوثوق في غرباء بالكامل بهذا النحو ولكن أمه كانت دائماً ماترى في المنام منذ أن أحضرته باكياً لهذا العالم أنه "هيمسك منصب كبير، هيسافر ويرجع ويبقى بيه.. هيبقى بيه". ويومها عرفت أنها ستتركه ولكن للأفضل، ليلتها رأت نفس الحلم أكثر وضوحاً، وابتسمت في وسط دموعها المنهمرة وهي نائمة.. "هيبقى بيه".

في السفينة هو، غائب الإدراك يتعرف على الكون أول مرة كآدم ومعه ربه يريه المتحف الشيق الذي أعده، البحر والموج، طيور النورس، الطيور المهاجرة في مجموعات لاتنتهي، السماء والقمر، الرياح والمطر والعواصف وقرب الهلاك وبعده عند احتضان جون وماريسا له ليلاً، بزوغ الشمس وهي تتحسس الأفق بآشعتها كتحسس ماريسا لسور السفينة، الألوان الجديدة والأشكال الجديدة للكون، دموعه وضحكه وحبه لأمه لأنها دلته على ذلك العالم الشيق المعد بإنتظاره ليبحر ويطير فيه كيفما شاء.

تعرف على "بســـنت" في هذا العالم.. أول فتاة يتكلم معها بعد مغامرته مع الفتاة ذات الجاكت الأحمر والشـــعر المجدول. وضعت "بسنت" شرشف مخملي رقيق غير شفاف على حياته، أو على ما فات منها، يتذكر عينيها وصـــليبها المدقوق على رسغها الأيمن، نصف مصرية نصف فرنسية هي..

"أحبك.."

عندما وصل مارسيليا أحبه جون وماريسا مثلما وعدوا والدته وربما أكثر.. وأحبهم، لم يبدأ في افتقاد بيته وأمه الافتقاد المؤلم إلا قبل أيام من العودة إلى منزله، تجول في مارســيليا معهم يومياً، أحب مدينة مارسيليا وشكلها النصف دائري، تمتد إلى الداخل من ميناء قديم صغير لا يتسع للسفن الحديثة، ويمتلىء هذا الميناء بزوارق النزهة، وتحيط به المطاعم والمقاهي، ويمتد إلى الداخل من الميناء القديم والكانبيير شـــارع رئيســـي على جانبيه المحلات التجارية الحديثة.

عن عالمه الحديث قرأ.. " أسس مارسيليا في نحو سنة ٦٠٠ ق.م، مغامرون إغريق من آسيا الصغرى، وأطلقوا عليها ماساليا. وكانت مارسيليا مدينة مستقلة حتى القرن الأول قبل الميلاد، ثم أصبحت تحت سيطرة الرومان، وتدهور حالها، ثم استعادت المدينة أهميتها في القرون الوسطى أثناء الحروب الصليبية. وقد أصبح بروڤانس، وهو الإقليم الذي تقع فيه مارسيليا، جزءًا من فرنسا في عام ١٤٨١م ووقعت صراعات دموية في مارسيليا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي أثناء الثورة الفرنسية."

ازداد حبه لهذه المدينة الساحرة وكانت عيناه تلاحظان كل مايجري حوله، عرف ناسا كثيرين وأحبه أصدقاء أهله الجدد والقدامى، كان كل يوم بمثابة قصة جديدة يختزنها عقله في حب، كان كثير الابتسام خاصة وهو يأكل مع جون وماريسا في المطاعم الأنيقة، وهو يضع منديلاً كبيرا بين ياقتي قميصه الأزرق المفضل ويجعله يتدلى مثل الستارة على صدره.. بيته كان يقع في تقاطع جادة بيير مع شارع القديس سيباستيين بوسط

مارســـيليا، منطقة هادئة وشـــقة جميلة وجيران يحبهم ومحلات رائعه..

وبسنت..

"أحبك.."

"أحبك"

"هتوحشيني..."

(١٤)

من بعيد رن جرس الحصـــة الثانية أو الثالثة من مبنى المدرســـة، رمش جفناه وهو يفتح عينيه في صـــحوة عقلية غير محســـوبة آلمته وانتزعته من ذكرياته الفرنســـية، أغلق عينيه لوهلة يلتقط فيها أنفاسه ثم أعاد فتحهما ببطئ. المدرسة تمثل له أبوابا مغلقة عديدة، أبوابا صـــدئة يعاد دهانها كل بضـــع ســـنوات فتصبح أكثر قبحاً، على عكس الأجراس، تعلن عن نهاية الشئ بموسيقاها التي ترن في العقول حتى بعد أن تتوقف.. نظر لأعلى مباشرة وهو يفكر أنه لم يسمع جرساً صباح اليوم، لم يسمع جرساً يعلن عن نهايتهما معاً، لم يسمع جرس بداية الألم وآبار

الذكريات المفتوحة والندم والاختيارات.. لم يسمع أي شئ صباح اليوم.

لمح "سعدية" وهي تمشي مبتعدة، أحس أنها نظرت طويلاً، شعور غامض لا يعرف مصدره، عرف اسمها أمس وعرف أنها جاءت بعدما قتل زوجها شخصاً ما أو هرب لايتذكر، وجهها مألوف ولكن عقله مُثقل بكثير من الذكريات وغير مستعد للإبحار للداخل للبحث عن هذا الوجه، وجهها جميل يقول له قلبه ولكن عقله يصرخ فيه بحرقة أنه قد عاني مَراراً كثيراً وهو لايحتاج للمزيد من النساء في حياته! يتراجع قلبه في خجل وهو يقول إنها كانت ملاحظة فقط من أجل الجمال الخلقي لوجهها وشدة ألفته.. ولكن عقله أدار وجهه ومشى مبتعداً..

بجانبه تراصت خرزات الشاي في قاع الكوب وهي غارقة في آخر رشفة أو اثنتين من الشاي، ترقد الخرزات في احتفالية صامتة خاصة الألوان والرائحة مثل دوائر صخرية جميلة في قاع بئر غير عميق، تدعو في صمت وسكون حواف الكوب

لإنزال المزيد من الماء العالق في شـــبه قطرات لم تلحق بقطيع القطرات الأخرى وهي تنزل في جوفه.

يترك الكوب جـانبـه قليلاً والقطرات تعود لتلحق بمسقط رأسها في قاع البئر وتتلون باللون الأحمر والأسود بينما يرحل هو في ســباته، حبه لاينتهي لهذا الكوب من الشـــاي. ينتظر آخر رشـفة بعد أول رشـفة مباشـرةً، هي أكثر رشـفة بها سـكر وشـاي وثِقَل ومزاج، يجدها بعد أن يفيق فتكون له مثل امرأة حنون أو سـرير دافئ، أو امرأة حنون على سـرير دافئ.. يرشفها بسرعة، بها لذة تغني عن الارتشاف ببطئ عكس مذهبه الخاص في التباطئ لجعل المتعة تسـري في أبسـط الأشـياء، في وضـع العسـل على الفطير، في خبز الفطير، في زيادة النار حتى يتبين أزرقها من أصفرها.

اليوم لم يجد آخر رشـفة ممتعة مثلما اعتاد، لم يجد المرأة الحنون ولا السـرير الدافئ، نظر لعم عبده مسـتنجداً ونظر له الأخير في اشـفاق، ونظرت خرزات الشـاي إلى بعضـها البعض

في تعجب.. ذهب عم عبده ليعد له كوب قرفة بالحليب أو السحلب بينما سقطت يد بائع الفطير جانبه في إعياء بعد أن وضع الكوب الفارغ جانبه.

"الأحمر والبني..
لون الشاي
لون الباب
ولونا عيون بسنت.."

دق جرس الحصة التالية وهو يشاهد تتابع السحاب ودمعة تأثر تهبط من عينه في بطئ..

كانت لديها لثغة محببة في السين فتصبح السين شينا غير كاملة، بشنت.. أحب تلك اللثغة التي تدغدغه خاصة عندما تتحدث الفرنسية فلا يعرف أيضحك مثلما تملي عليه نفسه أم يلتزم الصمت لأن هذا قد يغضبها.. تذكر عندما جريا من خالها، سرقا بعض الجبن السويسري من محله وانطلقت أقدامهما تطأ الأرض بقوة وسرعة، سمعا صوت لهاث خالها وهو

يحاول اللحاق بهما صارخاً كلاما كثيراً بالفرنسية والعربية معاً، تختلط بالصراخ ضحكاتِها وهي تعدو في الجادات والأزقة برشاقة ومعرفة مسبقة ممسكة بيده في قوة، أضحكته وهو خائف، بيده الجبن وبيدها بعض الخبز المجفف الذي قالت له ليلتها أن يحضره معه من البيت.

كانت رائحة الخبز والجبن معاً كافيين لاشباعه، ورائحتهما هي تكفي ليعيش في تلك اللحظة إلى الأبد. شدته من يده وهي تفتح بابا أحمر وبنيا على يمينها، وصلا اليه بعد جري كثير وانحرافات حادة، انفتح الباب كأنما كان ينتظر وانغلق خلفهما بهدوء. سندا ظهريهما على الباب وهي تلهث وتضحك وهو يلهث ويضحك، جذبها من يدها التي كان لايزال ممسكاً بها وأفلت ظهره من الباب فأصبحت تواجهه وظهرها وحده يستند إلى الباب الأحمر والبني، وقبّلها.. اندفع بوجهه لترتطم الشفتان ببعضهما البعض، تلتقم شفته شفتيها وقد اختفى اللهاث والضحك والأفكار ورائحة الخبز ورائحتها وصوت خالها الذي مازال يبحث عنهما ويفشل، أغلقا عيناهما

عن العالم واستمرت ملحمة الحب ثلاث ثوان، وأصبحت هي مقياس الثلاث ثواني في حياته فيما بعد.. جلسا على الأرض وذهب من فوره ساعده الأيسر ليحيط برقبتها بعد أن أفلت فمها، ولايزال يصل بين فمها وفمه خيوط طليقة شفافة من إكسيرهما النقي.. قرّبها أكثر حتى التصقا، مغمضين أعينهما، رقبتهما على كتف أحدهما الآخر..

تقابلا أول مرة عندما كان في الشرفة ينظر للغروب بتمعن وكانت هي بأسفل تحاول جاهدة رفع طيارتها الورقية الصغيرة فوق الأرض بذلك الخيط الأبيض المتداخل الرفيع، تجري وترتفع الطائرة البنفسجية بسهولة وأمل فينصبغ الهواء الذي يقبع وراءها باللون ذاته ثم يتثاقل فوقها فتقع مثيرة حولها إعصارا خفيا من التراب وخيبة الأمل.. تكلما ساعتها وقابلها كثيراً فيما بعد، أصبحت من أقرب أصدقائه ومقياس لايستهان به للحظاته وخفقات قلبه. كان في الخامسة عشرة آنذاك، طوله يزيد بضع بوصات كل فترة حتى اعتقد أن جسده يزداد طولا ليزيد من إعجابها، ولكنها كانت مفتونة به بغير حاجة لأن

يكبرها ولا لأن يشـــعرها بتفوقه الذكوري.. فقط تحبه حتى وإن أصبح بحجم يمكنها ابتلاعه..

"أنا بشنت.. وانت؟"

" أنا بحبك"

ويضحكان مطولاً..

(١٥)

يقضـي الدقائق الآن باحثاً في نفسـه عن بقايا الشـعور وفضلات اللحظات الفرحة فلا يجد شيئاً، يغيب سلامه النفسي وســـباته الهادئ فجأة ويعود صـــدره للانقباض، ينظر لداخله فيجد غابات مظلمة محترقة وعيونا صـــفراء تنظر للســـماء في ابتهال لنزول المطر، أغصـــان تنصـــاع للجاذبية وقبور غير مرئية لايسـتطيع نبشـها، أسـئلة عن الحب في وريقات صـفراء صـغيرة تخرج من العيون الكبريتيـة وتغرق في نهر من العســـل المغطي بالقرفة فتزداد صـفاراً، غرباء يدخلون في صـدره فيضـيق بصـيص الضـــوء ويختنق الطائر الصـــغير بداخله.. اعتذارات في ســـفن

يقودها قراصنة، قلوب تهرب من أصحابها قافزة من فوق جبل صلصالي يتحول الى بشر فيما بعد.. هل يموت اليوم؟ هل يجد الحب أو يجده الحب بكل هذا الصخب الصامت الجنوني الذي يجري بداخله؟ هل يستطيع أن يحب في هذه السن أو تستطيع امرأة تقبله بهذه الحال؟ يعتقد أنه من الأفضل أن يموت اليوم، لا توجد أشياء كافية ليعيش لها ولايجد من يريد العيش له..

"سلام"..

مرت سعدية من أمامه عائدة للمنزل من السوق فوجدته وقد ازداد سوءاً، أظلم وجهه وبانت تجاعيده وأفاق من قيلولته القصيرة.. تنظر لقطرة لامعة صغيرة في عينه اليمنى، تراها من بعيد وترى خفقان صدره العنيف، يراها بطرف عينه تتكلم مع عم عبده وتشير إليه في قلق ولكن عم عبده حافظ على وجهة المبتسم.. من هي هذه المرأة؟ هل تحاول الانتقام منه بطريقة أو بأخرى؟ يشعر وكأن سره يراه الناس جميعاً مطبوعا بحروف ذهبية على جبينه، وأن كل الناس يريدون الانتقام منه

حتى وإن لم يكن الخطأ خطأه كلياً، فما حدث صـــباح اليوم كان مقدرا له أن يحدث من قبل أن يبدأ.. أم كان خطأه أنه لم يثق بحدسه؟

لم ير نفسه في علاقة شخصية محبة بلا ألم ولم يصدق نفســـه أنه يجب أن يجمع الحب بالألم كل مرة، فأحبها وأخذ يزيد تعلقها به وتعلقه بها، لم يزدد طوله بوصـــات ولكنه ازداد وسامة وسحراً وأخذ في يحكي لها وحدها قصصه، احتضنها عندما كانت تبكي وحدها لشعورها بأن كل هذا سينتهي قريباً، و لكنه كذّب شعورها وشعوره وحارب واستسلم وألقى أسلحته كلها أرضاً، ثم تركها تستعيد نفسها المتعلقة به رويداً رويداً وهو يتألم من اللصـــق المشـــدود الذي يدميه ويجعله عاريا في أماكن التصاق روحها.. أخذت ولديها معها.. ثم أخذت روحها كاملة وتركته عارياً تدميه الذكريات والأرواح المحيطة.

"سلام"

(١٦)

جلســـا على الأرض يأكلان الخبز والجبن ، ذاب الجبن على لسانه بسرعة ومضغ الخبز بدون أن يذوقه، كانت أول مرة يأكل بدون أن يلاحظ الأكل نهائياً.. غالباً عند الأكل يكون عقله كله على حواف براعمه التذوقية الموجودة على ظهر لسانه يحلل الطعام ويختزن اللقيمات الســـعيده في الذاكرة.. لم يذق الطعام وقتها لأنهما كانا يبتســمان بلا توقف.. لأنه تذوقها فلا يستطيع عقله تذوق الأكل.

"أنا بشنت.. وأنت؟"

ضـحكت شمس العصـاري وأرسـلت بعضـاً من أشـعتها الهادئة لتنير جسديهما الصغيرين وهما على الأرض الخشبية ذات الألواح الضيقة، في مواجهة بعضهما البعض، يأكلان في خجل يداري شـوقا عنيفا، يتحرك فيتصـاعد صـوت الخشـب فتشـير لفمها كناية عن الهدوء حتي لا يســـمعهما خالها، لايتحركان،

فقط يهتزا في صمت من الضحك العصبي الخجول ويعودا إلي تلاقي الأعين الآسر.

هبطت الشمس قليلاً لتصبح في مواجهة الشباك، كجارة متلصصة تطل من أعلى، لتراهما ساكنين.. مدت رقبتها إلى خده الأيسر ولم تقبله، بل تركت خدها يلمسه.. ثم ابتعدت قليلا وفعلت نفس الشئ مع الأيمن، كانت كلاجئة تريد الدفئ وكان هو كصاحب منزل زادت رطوبته من تساقط الثلوج ولا دفء فيه.. ولكنهما معاً وجدا الدفء، يشعر بقربها فيسكن قلبه.. الغطاء المخملي الشفاف.. تركت خده الأيمن وواجهته بعينيها للحظة ثم قبلته قبلة طويلة، تفتحت لها سدود الماء وانطلقت الشلالات لأعلى عكس تيارها لتروي جبال مستقبله وماضيه، حلّقوا عالياً ورأوا أنفسهم في الغرفة الصغيرة تحيطهم قُبلتهم، وكانت تلك اللحظات هي مقياس التسع ثواني في حياته المستقبلية.

عندما ابتعد وجهاهما قال لها "وحشاني يابشنت"..

من خلفها زاد جمال الباب ألوانه التي بدت جديدة تحتفل بالحب، "الشـــمش حلوة".. قالتها في خجل فانفجر ضـــاحكاً.. أحبت وجوده في هذه اللحظة، ويتذكر هو هذه اللحظة عندما يحب نفسه أو تحبه نفسه..

"أول دخولنا الجنينة.. عيط النعناع يالالالي"

تعانق بعض فتات الخبز الناشـف على الأرض الخشـبية وهي تقفز في الوديان الضـيقة بين الألواح كلما يمشـي أحد في الغرفة.. بقي المكان المرسـوم الخالي من التراب على ظهر الباب الأحمر والبني الذي يمثل أماكن التصاق ظهراهما بالباب، وبقيت بعض ذرات التراب التي أحضـراها من الشـوارع والتي تبدو كأنها تصـعد عائدة إلى الشـمس عند سـقوط الأشـعة الهادئة اليومية عليها. بقيت رائحتهما وطعم قبلاتهما في تلك الغرفة التي لم يدرك إلى الآن أنه لم يفكر للحظة في النظر حوله ليرى ماكانت تحويه، فقط كانت تحويهما..

"وتبقى بعد السنوات

الثلاث ثوان

والتسع

ودقائق انتظاري تحت منزلك الفرنسي الجميل شكله

وسلالم مدخله

وأقدامنا

وألوانك الرمادية

.. لم أسألك يوماً لماذا حزنك

فما أعطيتني إياه كان روحي وربي

وكان سؤالي دنيوياً..

لم أقل سلاماتي

ولم أعدك بالمجئ ثانيةً

لمعرفتي أننا لن نلتقي بعد اليوم

لأننا تعلمنا معاً أن نثق بحدسنا

حتى وإن كان شعوره

ثلاث ثوان..

أو تسع"

(١٧)

تتكلم سعدية مع عم عبده كلمات أخيرة وهي تشير له مؤكده وهو يحرك رأسه رافضاً، ثم يزيد إصرارها فتشير له مرة أخرى ومرات فيبتسم ويرفع كتفيه في استسلام..ثم يراها تذهب في خطوات واثقة متعجلة عائدة إلى حيث أتت.

كان عم عبده يعمل في مسجد صغير في الواحة، يبيت فيه ليله ونهاره، يقضي به فرحه وحزنه، يسلّم على الإمام باحترام كل صلاة ويطرد النائمين مشدداً على أنه مكان عبادة فقط، يعطر السجاد والحصير بالعطور التي يجود بها بعض المصلين العائدين من الحج أو من بلاد الخليج عامة، ثم يرتب المصاحف في إتقان هادئ ويتأكد من ملء دلو أخضر صغير من بئر قريبة حتى يتوضأ المصلون قبل كل صلاة.. مع مرور السنين يحن على بعض النائمين المسافرين، يرق قلبه فيصبح أقل تشدداً، يجلس ليلاً ليسمع حكاوي الدراويش والمريدين المسافرين في اتجاه الأنوار التي يرونها، يغنون الأغاني الصوفية ويتعلمون طرقها، يبادل خبراته الضئيلة بأخرى ضخمة، يرقص ويعد الشاي،

يرتلون القرآن والأذكار والشـــكر لله على النبي والأنبياء والطيور والجبال.

كان ينتظر كل عام "احتفالية الســـياحة" التي تقام في جبل الدكرور وتســـتمر لثلاث ليال هي الليالي القمرية لشـــهر أكتوبر، لاتعني الســـياحة هنا زيارات الأجانب ولكنها تتجمل في معنى صـــوفي وهو الســـياحة بالقلب في الخلاء طلباً لصـــفاء النفس، يصنعون الخيام في الجبل ويستعدون لطبخ الأرز واللحم والرقاق، يبيت شـــيوخ المســـاجد في الخيام ويختمون القرآن ثم يخرجون لتلاوة الأوردة والأذكار في دوائر تتسـع بانضـمام معظم أهل الواحة بالتدريج، قبل نهاية الأيام الثلاث تُعقد جلســـات صـــلح عديدة لتتصـــافى النفوس فوق ذلك الجبل وتحت تلك الســـماء ومع غناء الأطفال وفرحهم وضـــحكاتهم، ثم ينصـــرف الجميع عن الجبل نازلين في صباح اليوم الرابع ويلتقون في مسجد سيدي سليمان في سيوة لإقامة حضرة أخيرة قبل أن يتفرقوا.

يبقى عم عبده بعد تلك الأيام تائهاً في ملكوت ربه، ينام في الصحراء بلا غطاء ويصحو ليصلي ويدعو ثم ينام مرة أخرى قبل أن يعود لمسجده بعد يومين أو ثلاث وقد تجددت روحه.. وجد عم عبده لحياته معنى في مساعدة الناس والمسافرين، أعطاهم كل مايستطيع من حب وحنان وإرشاد نوري وأعطوه خبرات ورؤى المسافرين وروحهم الجميلة، يعد لهم الشاي بروحه وقلبه ويحضر له البعض المرمرية والحبق المجفف والنعناع والقرنفل، تعلم مداواة بعض أمراض السفر بشربات الأعشاب ودهان زيوت النخيل والزيتون.. مع تقدم عمره أصبح مسجده الصغير قبلة و نقطة لابد منها على خرائط المسافرين المهترئة، يتعلم أدعية جديدة ويرى السماء تقترب منه يومياً بتؤده.

تزوج.. لم تتوافق الأرواح بينهما ولم يطلقها لسنوات، قتلها يوم أن وجدها بين يدي عشيق أحمق من المسافرين تحت لحافه وبيته المجاور للمسجد.. هرب العشيق واستلقى عم عبده ينظر ليديه الحمراوين، اللتين استبدلتا روحه المترقية على سلالم

جنة خالقها بيد أنها انصاعت لشهوات زائفة وانتقام خاطئ، ومن يومها وهو لايكف عن الضحك.. ذهب للسجن وعاد بعد فترة طويلة للسماء ولمحاولات التوبة ولأكواب الشاي ولم يعد إلى رحلة أطوار النفس وترقيها، عاد كجسد هائم بلا روح وبلا أنوار بعيدة يراها ولا أنوار داخله ترشده، تبتعد عنه السماء يوماً بعد يوم، لايحضر احتفالية السياحة وتنساب منه الأذكار والتلاوات والأوردة كما تنساب المياه من القماش.. يخطئ في بعض الأحيان ويتبادر لذهنه لحن من أذكاره القديمة فيعيش معه راقصاً للحظة وتكاد روحه تعود له ثم يجفل سريعاً وهو يرد السلام على هذا أو ذاك رافعاً يده وهو يضحك..

"كن مطمئناً.."

كان قد ترك معية خالقه ولكنه لايزال يوصي بها حتى وإن لم يكن يدرك ذلك..

"كن مطمئناً"

يرى بعض الدراويش من بعيد فيبتسم ثم يتذكر ويشيح بوجهه خوفا من رؤية وجه العشيق أو وجه يشبهه.. يدمع ولايسامح نفسه.

"كن جميلاً!"

ويقلب الشاي لرواده ومريديه.. وإن لم يكن يدرك أن لديه أياً منهم..

(١٨)

يتذكر عندما عاد من الرحلة الحالمة التي كان بها، وبلاد أوروبا العديدة التي توقف بها أثناء عودته لمصر، عاد لعيني أمه التي جفت دموعها ثم عادت تنهار كشلال انتظر قدوم المطر، لم يجد أخوته وأخواته، تزوجوا وعاد منهم من تطلقوا ثم ذهبوا ثانيةً مع أناس آخرين. أبوه ذهب إلى ربه، لم يعد أبداً من القاهرة والسفارة والمقاهي والأصدقاء الصغار.. كان عمره الآن واحدا وعشرين عاماً.. أفرغ هو دموعه أيضاً كشلال مجاور نزلت عليه نفس الأمطار، شعر بخواء اللاانتماء الذي تملؤه أمه، ولهذا اختار في بقية حياته الانتماء لأصغر الأشياء وأصلها.. لم

يحلم يوماً بأن يكون بيته وصدر أمه هما مكان سكونه واكتمال روحه، خاف وخافت أمه أن يكونا قد بعدت خلاياهما واستكانتهما لأحدهما الآخر، أن يكون قد ذهبت روحه لروح بشنت أو هند الفتاة التي احتوته بالقاهرة قبل أن يعود لبلدته هارباً من سحرها الجميل.

أكل هو وأمه الفطير والعسل والجبن في نفس المكان وهو يستمع لصوتها العذب الأصيل يتكلم عن الليل والهواء والحياة وما فاته أثناء سفره.. يقول دائما إنه تعلم الحب والفن من البداية من أصدق وأقرب مكان لقلبه وإن لم يدرك ذلك إلا عندما عاد لهذا المكان وهذا القلب الحنون، تنتابه لحظات شعور بالذنب للبعد طوال هذا الوقت عن أمه وينتابها نفس الشعور أحياناً فيصبحان كنحلتين سقطتا في نفس زلعة العسل الذهبي، يحاولان الطيران لإنقاذ الآخر ولكنهما يعلمان مع الوقت أنهما يجب أن ينقذا نفسيهما أولاً..

في هذه السنين التي سبقت سفره لسيناء وتزوجه من أم ريحانة تعلم على يدي أمه البساطة وحب المجهول الرباني، تعلم الحياة مع معلمة الحياة وجالبته لهذه الحياة، رأى بساطة عالمه في الواحات تساوي في جمالها كل المعمار الأثري والموانئ والبحار البيض والقاهرة.. تغني له أمه كأنه مجرد طفل. تصل ذكرياتها قبل أن يسافر بحاضرها فتشعر كأنها لم تفتقده لحظة.. تعتني به وتحضر له الأكل وتتكلم معه، يمل كلامها الكثير ولكنه لم يطلب منها أبداً التوقف، كانت أمه ينبوع جماله الذي لن ينضب أبداً..

وتحت القمر نصف المكتمل وأغاني الرياح ورقصاتها المفاجئة المتقطعة مع النخل النائم وصفير أمه وغمغماتها التي بدت وكأنها تأتي من زمن أمازيغي سحيق، خلع عنه كوفية بسنت البنية وقرب ركبتيه إلى صدره ثم مال إلى حجر أمه.. ونام.

حلم ليلتها بما رآه وتعلمه في مارسيليا، الفن والجمال، والحب.. تطايرت تلك الأحاسيس حوله في بوهيمية هائمة تشده للعودة لمارسيليا ولكنه كان يعلم أنه لن يعود، لقد وجد بيته أخيراً، ورغم قلة الأحاسيس حوله وسطحيتها وعمق السلبي منها في بلدته البدائية إلا إن نمو الأحاسيس بداخله وإلمامها بجاذبية المكان السحرية جعلاه في راحة سهلت عليه لمس مشاعره والتعرف على نفسه أكثر.. ورغم اختفاء بسنت والفتاة ذات الجاكيت الأحمر والشعر المجدول لكنه الآن سعيد بوجه السعادة المختلف الهادئ المعتمد على الانتماء للمكان الذي يمشي عليه.

في مارسيليا تعلم روائح الشهور وألوان البشر واختلاط الألوان بالروائح، تعلم التصوير وتعلم تصفية روحه قبل أن يأخذ اللقطة حتى لاتؤثر مشاعره على مشاعر المشهد الذي يقوم بنقله عبر العدسة، ثم تعلم الشعور بالمشهد في نقاء حسي وإضافة ما يشعر به مثل رش القرفة فوق فطائر العسل.

حلم بتصوير الفطير والعسل وبأبيه وأمه وبلدته، أحب درجات الأبيض والأسود في التقاط صور البشر، يضيف لها ليلاً ألوان حياته الخاصة فيشعر بالألفة، ثم ظهرت الكاميرات الملونة فاستخدمها في التصوير ولكنه ترك الأشخاص وتعبيرات الوجوه وبسنت لكاميرته القديمة، فهي ثمينة في عكس صور الأشخاص أكثر من الصور الملونة التي لاتترك أي شئ لخيال من يراها.

علمه جون بول التصوير حيث كان يصطحبه وهو يصور الناس في أوضاع عدة ثم يمثّلهم، بعد إضافة رؤيته الفنية المجنونة أحياناً، على مدار أيام في ورشته الصغيرة. يصور أوضاع الناس في علاقتها مع الفراغ ومع بعضها البعض، وتعابير وجوههم في أيام وفصول السنة المختلفة ثم يقوم بتركيب حركات الجسد والمشاعر، ليصل لرسالة فنية أو "الحالة" كما يسميها جون، أو لا يصل في كثير من الأحيان.

"مااااارياسا حبيبتي" يصرخ جون بول عند دخوله من باب الشقة الغالبة عليها الألوان الغجرية وروائح الكريمة والقهوة والورود والنباتات التي تسقيها ماريسا يومياً، في الصباح تغلب رائحة الخبز الطازج التي تعده ماريسا والذي تجفف مايتبقى منه في شمس مارسيليا، لايوجد في الشقة إلا بابها وباب غرفة ماريسا وجون، فيما عدا ذلك الشقة خالية من الأبواب، والفواصل هي خرزات معلقة بخيوط من السقف لأسفل.. يحب صوت ارتطامها وهو يتحرك من غرفة لأخرى، يجلس على الكراسي الواسعة والأرائك المريحة ويعبث عقله بزخارف السجاد ليتخيل معارك ومغامرات أسطورية لا تنتهي، يرسم على حوائط غرفته التي كانت معدة لاستقبال طفل رضيع فاستقبلت مراهقا في بدايات طريق تعلمه الفن والحياة، ولهذا لم يكبر أبداً، حتى عندما رجع لأمه عاملته كطفل عاد بعد أن كان تائهاً فترة طويلة.

"جووون عزيزي" ترد عليه ماريسا وهي تمشي بسرعة في اعتماد تام على ذاكرتها في تجنب الأرائك والكراسي في الشقة

حتى تصـــل للباب، ينتظرها جون هناك فارداً ذراعيه مبتســـماً فتلقي نفســـها هناك بلا تردد فيتعانقان لدقائق عديدة حتى ليخيل للولد أن جون نســـي كل شـــئ عن الصـــورة. يناديانه فيدخل بينهما ويغيب وســـط عناقهما الذي لاينتهي حنانه وعاطفته وهو يســتشــعر كمية الأســهم التي يطلقها "كيوبيد" لتصـــل بين قلوبهما، وفي بعض الأيام كان يشـــعر أن الأســـهم تصيبه هو أيضاً.. تمنى بعد ذلك أن تصاحبهم بسنت، تكون معهم وبينهم وله وحده.. تمنى لو يعانقها وحده.. ويكون بينهما طفل صغير آخر..

"هتوحشيني بشنت.."

لاينسى جون الصورة، فقط يتظاهر بالصبر حتى ينتهوا من تناول الحساء ثم يجري بعد العشاء الى ورشته التي تتحول في البداية لمغارة حمراء ليحمض بها الصـــور ثم يبدأ في ترتيب أدواته على ضوء الشموع.

يطير وراء جون الببغاء الصغير الذي أحضرته سيلفيا إحدي صديقات ماريسا بعد عودتها من السفر. كان الببغاء يحب بسنت عندما تأتي أحياناً للعشاء، يقف على كتفها ويتركها تلقمه اللب وفتات الخبز ثم تتركه يأكل من طبقها، يضحكون عندما يطير فجأة وتتساقط قطرات حساء الطماطم أو العدس من منقاره الملون على رؤوسهم.. يأخذهم جون ليريهم آخر أعماله بعد العشاء، وتقترب ماريسا لتتحسس التماثيل فيظهر ما تشعر به على وجهها بسرعة، لم يكن لديها ماتخفيه فهي تقبع في وسط عائلتها وأحبابها. كانوا سعداء وكان كل يوم يمثل ذكرياته الخاصة و يضيف لحياتهم مقدارا كريما من الحب والنقاء. يتركهم جون لإكمال التماثيل وتُعلم ماريسا بسنت الحياكة.

أعدت له بسنت في يوم عيد ميلاده كوفية بنية صنعتها بخيوط الحب والهيام الوجودية التي تربطهما أكثر فأكثر مع مرور الأيام، يحتضنها مثلما يحتضن جون ماريسا، يعطيها فنون الحب والحنان التي يتعلمها في المنزل، يشاهدا الغروب معاً ويذهبا

للمدرسة معا ويأتيا معاً. وفي يومٍ يصطحبها لحانة صغيرة خالية صباحاً، كان يملكها صديق لجون، تشاهد الكراسي الخشبية البنية المقلوبة والزجاجات التي تحوي كحوليات داكنة، تقرّب من ضفتا جاكيت تلبسه لبرودة المكان الخالي الذي تنقصه الطاقة الليلية المعتادة، يفاجئها بموسيقى البيانو العتيق الموجود في الركن، يلعب لها بعد أن قضى أسابيع يعلمه صاحب البار، تحتل عيناها وجهها كله من الدهشة ثم تحتل عيونها الدموع المتأثرة وهي تتركه ليلعب على الأصابع السوداء والبيضاء في طفولة وحب بينما لايستطيع هو التوقف عن النظر لأسفل من خجله. تمسك يده فيعجز عن اللعب ويكمل بيد واحدة ويخطئ مرات عديدة، تقبّله في رقبته من الخلف فيتوقف تماماً ويبتسما معاً.. يشكران صاحب الحانة في مرح ويذهبان، يمشيان ببطئ في طريق العودة للمنزل.. تذكر الوقت الذي قضاه متوتراً وهو يرتب أدوات الطعام على المائدة عندما أتت بسنت لمنزل جون للعشاء أول مرة، تذكر ضحك ماريسا وهي تربت على كتفه وهو غير قادر على وقف اهتزاز قدميه.

لم يكن من السهل عليه التعود على الروح الفرنسية ولاجون ولا ماريسا ولكنه كان مطيعاً وكان يلمسه حب الناس وفن الحياة والحياء والخصائص البشرية المختلفة. كان يفرح عندما تصاحبهما ماريسا في رحلاته التصويرية مع جون، يبتسم جون وهو يشاهد رقص ماريسا على أنغام صوت الكاميرا في عقلها الخاص، جلوسها في الحدائق وهي تستمع لأفكار جون المتتالية كأحصنة السباق عند خط النهاية، محاولاتها العديدة لشم هواء العالم كله وهي تفرد ذراعيها وتدور في حلقات متشابكة، محاولاتها لإضافة حب وتقبّل الآخرين لهواء العالم الذي دخل صدرها وإعادته للبشر والكائنات والجماد. كانت ماريسا العمياء حالمة جميلة وعلمته من أحلام الصحوة ما لم يحلم به أبداً وهو نائم.. كان سعيداً، يلتقط لهم الورود ويسقيهم من النافورات، يمسك أيديهما ويحمل بينهما رسائل الحب والغرام عندما يجلسان متباعدين أو عندما تطبخ هي ويكون جون في ورشته منهمكاً لإطعام حواس العالم بفنه وصدقه.. كانت ماريسا تعرف العربية بطلاقة من زيارات مصر وكانت

تعلمه رويداً الفرنسية، يتكلم مع بسنت العربية ويفاجئها أحياناً بعبارات غزل وحب فرنسية تضرب آذانها وتزيد من حمرة وجهها المألوف الجميل.

"هتوحشيني ماريسا.."

"هتوحشيني بشنت.."

"خلي بالك من نفسك عمي جون.. تعالوا مصر"

"سلام.."

(١٩)

في المدرسة رن جرس الفسحة طويلا وباعثاً على السعادة وهو مازال ساكناً على كرسيه الخشبي، يتابع خروج التلاميذ الصغار مثل أنوار اللمبات الملونة في الأفراح، ضحكات قصيرة وصراخ ملأ الهواء وزاد من طاقة جزيئاته فأخذت الأخيرة تهتز بعنف ضاحكة، شاركتها اهتزاز تلك البقعة من الكرة الأرضية مع دبيب أقدامهم الصغيرة، محدثة أصواتا يسمعها بقلبه وهو يحاول أن يطرد الخدر من قدمه اليمنى، ذكره هذا الخدر عندما كانت تنام أم ريحانة وهي تستلقي على كتفه الأيمن

وتستلقي ريحانة نفسها على كتفه الآخر، و عندما يصحو مع شروق الشمس كان لايشعر بكتفه الأيسر ولاجانبه الأيمن كله ولكن.. هما جسده، هما حياته وبلده وبيته وأطرافه.

افتقد ريحانته والولدين وهو يشاهد التلاميذ يلعبون ويضحكون، يفتقد أيديهم وحنانهم وحنان قلبه عندما يراهم، يفتقد حياته قبل اليوم صباحاً ويتمنى لو استردها، تقبع زوجته الأخيرة الآن في مكان بعيد في قلبه، وتقبع ريحانة مع أمها تحت تراب مقابر البلدة، عشر سنوات مرت تقريبا ولايقل افتقاده لهما، يحسد الموتى لأنه يعرف أن زوجته وابنته ينيران لهم القبور كمشكاة مليئة بالسعادة والبراءه ومزج الأرواح.. اختفى الخدر من رجله تدريجيا وشعر بقرب هبوط الدموع على عينيه فوقف بسرعة، اهتزت الصورة أمامه لوهلة ولكنه تحرك في اتجاه المدرسة.. لماذا لم يبك عندما تذكر ريحانة؟ أنفدت دموعه اليوم؟ أيموت ويشاركهما قبرهما ويناما على عظامه حتى يصبحا تراباً واحداً من نفس اللون يمتزج ويبعث جسداً واحدا..؟ ألهذا تركته زوجته الأخرى اليوم؟ هل كان ظالماً لها لأنه لم يستطع

نسيان ريحانة وظِل والدتها الذي يتبعه ويحميه من الشمس في الصيف؟ أكان من العدل أن يتزوج امرأة جديدة بعد ذكرياته تلك؟ أكان من العدل أن يحبها ويترك منزل والدته الذي أقسم ألا يغادره بعد موت ريحانة وأمها..؟ أحب تلك المرأة هو يعلم أنه أحبها ولايزال يحبها لأنه تعلم دوماً أن يحب ولأنه لم يُشعر أبداً من حوله بفراغ احتياج العاطفة. كان يوفر العاطفة لأنه عطوف ولأنه محب ولم ترض هي بما كان يوفره، لم تفهم تعبه وحاجته للحنان وكسرت ظهره وهي تطالب بالمزيد يومياً حتى تشتتت روحه وأصبح كبذور القمح وهي تخرج من يد الفلاحين طائرة وتهبط في باطن الأرض، أنسته ماضيه وحبه لنفسه وعالمه وربه. يتذكر معارضة أمه لهذه الزيجة.. ولكنه لايعرف من يلوم في هذه المرحلة وهذه الدقائق، يلوم نفسه على ماسببه من آلام.. عادت دموعه من جديد ولكنها دموع حنق وغضب.

كرهها وسامحها، ولكنه لم يسامح نفسه على مسامحتها.. ولم يسامح نفسه على مافعله، سيكره نفسه إذا رآها مع رجل غيره وفي نفس الوقت سيستريح لأنه سيعلم

عندها أنها قد تستريح الآن.. لايعرف أيكرهها أم يكره نفسه، زادت التعقيدات وتذكر قول صديقه وهما يجلسان على نفس مقهى بوسط القاهرة، أن بعض النساء لديهم خطة محددة ودور الرجل مهم في هذه الخطة ولكن لايهم أي رجل، لا يوجد تقدير لتفرد الرجل الذي حصلت عليه وحصل عليها في خضم الحياة والتلاقي والأزواج، فقط يهم أنها سوف تمتحن حبه كل أسبوع أو أقل وإذا فشل في فعل ماتريده فإنها تهدده بالذهاب دائماً لعلمها أن الرجل سيحاول ترضيتها لأنه يخاف شعوره بقلة رجولته، شعوره أنه لا يحضر لأمرأته ماتريد.. إن كثرت مرات الفشل في الإمتحان فتقوم المرأة بطرد التلميذ نهائياً.. وتمشي بلا رجعة وهي تترك لديه بعض الذكريات الجيدة التي تشوهها في عنف قبل أن تذهب، وتتركه شاعراً أنه لم يفعل الكافي، وأن كل ماحدث هو خطؤه وضعف منه. انطلقت الزيادات الكهربائية تتحكم في عقله وروحه، لا يعلم إذا كان فعلا لديه صديق قال كل هذا أم أنه يفتعل هذه الذكرى ليقول

عقله هذه الكلمات.. ترى فيم تفكر هي الآن؟ أتشعر بالندم أم الغضب كعادتها؟ لا يعرف..

زادت خطواته وأوصلته قدماه للمدرسة، ترك فطيره وعسله خلفه وعم عبده الذي ينظر له في دهشة وحزن، مشى بمحاذاة سور المدرسة وهو يركل الحصى الصغير على الأرض لمسافات مختلفة، يستخدم الركل لإزالة ماتبقى من الخدر في قدمه.. يراه التلاميذ عبر السور وهو يمشي في حزن، يندهشون لرؤيته فعادةً ما يذهبون هم إليه، يصرخون ويشيرون إليه ويحركون أيديهم في جنون، يتعرف على بعض الوجوه ويحاول الابتسام ليدرأ عن عقله ما ملأه من العنف والغضب، يكمل مشيته حتى تنتهي المدرسة.. ينظر لليسار بعد انتهاء المدرسة ويرى المقابر من بعيد، تنتصف الشمس فوقها وتلقي بظل الأشجار فوق شواهد القبور في مشهد مهيب.. تتلاقى الخطوط فترسم صورة ريحانة وأمها في السماء من بعيد، تكثر الخطوط وترسم باقي أجسادهما وهما يأكلان الذرة المشوية في سعادة..

ينظر لرسمتها في الأفق ويقول، "أنت منزلي"
"حتى وأنت بعيد عن المنزل؟" ترد بجدية،
"حتى وأنا لست معك، فذكراك تكفيني"
"أيها الكاذب الجميل.. لقد افتقدتك"
"وأنا أيضاً..ألن تعودي؟؟.."

يتذكر كيف قابلها، في يوم من أيام بدايات الشتاء في شهر يناير أتت، تحمل الشاي في ليلة شديدة البرودة ولكنها كانت تمسك الصينية بإحكام لم يعهده في أي امرأة أخرى، حولهم تساقطت الثلوج الهشة ونامت فوق الأرض والجبال لتمنحهم تآلفاً يزيده ضوء القمر الأبيض.. تغلبت بعض الصخور على الثلوج وظهرت وهي تباهي بتداخل ألوانها البنية والصفراء والحمراء خاصة على أسطح بعض الجبال العالية هناك.

يجلسون وتحيطهم الجبال من كل ناحية، جبل موسى وجبل الصفصاف وجبل سانت كاترين الشاهق، يستمعون

داخل الخيمة، التي رُبط على بابها عدد من الجمال، إلى شيوخ بعض القبائل السيناوية منهم الصوالحة والعوارمة والجبالية، يتكلمون عن تاريخ تلك المنطقة التي تمثل لهم ولزائريها، بجانب قمم الجبال، قمة أخرى من القمم الروحانية الشاهقة والمقربة من الله.

يتكلمون عن قصة القديسة "كاترينا" الجميلة التي سُميت المدينة على اسمها رغم مرور كل الأنبياء من هذه المنطقة راغبين في إكمال رحلاتهم، عن قتلها على أيدي أبوها وعمها ورجالهم ووضعهم لرأسها ويدها فوق قمة جبل كاترين إنتقاماً من تدينها ورهبانيتها.

يحكون عن دير كاترين الذي يعمل به مسلمون ومسيحيون جنباً إلى جنب وعن المسافرين من كل بلاد العالم ممن يزورون جبل موسى أو الدير أو المسجد الفاطمي الذي يقع داخل الدير. يتكلمون وهي تضع الشاي أمامهم، وجهها المغطى يترك لعينيها فقط المساحة للرؤية ولتُبين الكحل الغامق

المجمّل الحاني، تتردد في الخروج في هذا الجو البارد للعودة لخيمة النساء فيأمرها رجل بدوي عليه العجز والشيب بأن تجلس وألا تتكلم.. يقول له صديقه إن القبائل في سيناء تحافظ على نساءها فلا يتزوجون إلا من قبائلهم، وقد يقتلون أي كائن من خارج منطقة جنوب سيناء يقترب من النساء ويدفنونه في هدوء ويكملون حياتهم.

كان قد سافر لسيناء بعد أن علم بسفر بعض الرحالة والطلبة الذين وجدهم عند عم عبده في جلسة من جلساتهم، لم تكن علاقته بعم عبده وطيدة وقتها قبل أن يدخل السجن، كان فقط يحب الجلوس وسماع الأوردة وهو يستغفر من كل خطاياه أثناء سفره. قرر السفر معهم وأخبر أمه التي باركت سفره وذهب، وقابلها.

تنتمي أم ريحانة إلى قبيلة (الطورارة) من (طور سيناء)، قابلها ثانيةً وهو يتسلق الثلوج ويحارب البرد الذي أثلج وجهه وصدره في طريقه لقمة جبل موسى ليلاً، كانت تقف في قوة

وسكون وتغطي جسدها رقائق الثلوج وعباءة سوداء بها زرقة مشتعلة تلمع تحت ضوء القمر، تجنبته ولم تنبس بأي كلمات وتجنبها لخوفه بعد أن حذره المسافرون معه من خطورة التقرب لبدوية من سيناء.. ولكن عينه الأمازيغية وسحره وقلبه الصافي أشعراها بما كان يشعر به.. شعرا وهما على منطقة مستوية أسفل قمة الجبل بدفء غير معلوم المصدر، تغمض عينيها فيغمض عينيه وهو ينتظر المجهول من اللقاء، يعود البرد فيسري في روحه المتخثرة، يفتح عينه فلا يجدها، ينظر حوله فلا يراها كأنها معجزة تظهر للمؤمنين فقط، يترك لعينه الوقت لتتعود على الظلام المحيط ولكن كل مايراه كان بياض الثلوج ونور القمر الذي يداري النجوم البعيدة.

قبع في كاترينا حتى تضائل القمر واختفى وهو يبحث عنها يومياً فلا يجدها، لام قسوتها وتعلق قلبه الشديد بها وهو لم يسمع صوتها حتى ولم ير إلا عينيها، يتعبّد ليلاً في نفس البقعة التي رآها فيها آخر مرة منتظراً لمعجزة، يزداد إيماناً بأنه سيراها مرة أخرى حتى بعد أن شدوا الرحال ليعودوا للواحات

توقع أن تأتي مسرعة من خلفهم وترمي عليه عباءتها ثم يعيشان في مغارة بعيدة منعزلة للأبد ولكن هذا لم يحدث.. ودعوا كاترينا والبدو الذين استضافوهم وذهبوا، لاحظت أمه همومه بعد عودته، تعرف الأمهات أطفالها من العيون وليس بالكلام، حاولت أن تجعله يفصح عما بداخله ولكنه كان قليل الكلام.. انتظرا سنة وهو هائم يحلم بالبدوية التي وضعت عليه تعويذة الجمال وكحل العينين، يقارب الثلاثين سنة الآن ولم يتزوج، كانت تحاول أمه وتدفعه بخبث إلى عزائم وولائم بها فتيات كالمرمر يبحث في وجوههم عن عيون البدوية فلا يجدها، يجلس أمام المياه ليلاً وينام في الخارج على الرمال حتى الفجر فيصحو ليجد أمه قد بدأت بخبز الفطير وسكب العسل، تدعو له ويذهب ويعود عصراً لينام على غير العادة بعد أن كان يعود ليلاً بعد التسامر مع أصدقائه والرقص وغناء الأذكار بجانب مسجد عم عبده.. انتظرا سنة حتى عادت تهبط الثلوج بكاترين، أخذته أمه بعد أن حكى لها كل شئ ذات يوم وسافرا، كان يحمي كتفي أمه بيديه من البرد أثناء السفر وهي

تبتسم بفخر، لم يكن يعلم ماتنتوي أمه فعله ولكنه كان ينقاد بخيط كعروس من القطن تمسك زمامها تلك الفتاة في جنوب سيناء، ليس لديه وقت للتردد فأمه كانت شديدة العناد فيما يتعلق به.

تجلس مع الشيخ الأشيب الطيب في داخل الخيمة وهو ينتظر في الخارج يعد الجِمال ويكاد أن يغشى عليه من هول الموقف، تواسيه الجمال بينما تواسي أيضاً أنثى منهم ذبحوا ابنتها صباح اليوم لإعداد وليمة لزوار آخرين من الخارج، يتعالى صياح الأنثى الجريحة ويتعالى صياح قلبه وغصة حلقه تكاد تقتله، تخبر الشيخ عن أصلها وأصل زوجها، الأمازيغ وسحرهم ولغتهم الخاصة وانتمائها لقبيلة الزناين وأصلهم وهجرة جدها من الجزائر من قبيلة زناته، تحكي له عن استقرارهم بواحة سيوة، البوابة الشرقية لدولة الأمازيغ، ثم انتقالهم للواحات البحرية ليكونا أقرب للقاهرة والجيزة حيث كان يعالج زوجها من مرض بالكلى، تخبره عن الفطير والعسل وسفر ابنها لفرنسا وأوروبا وروحه وشخصه، يومئ الشيخ برأسه وهو ينظر لأسفل، تحكي

له عن معبد آمون في سيوة والآلهه وأن النبي موسى يجمع بين المصريين مثلما جمعهم محمد، بينما هو جالس بالخارج ينظر للجبل المدكوك الذي أصبح تراباً بعد تجلي الله، يدعو قدرته أن يفعل المستحيل.. تخرج أمه من الخيمة ناظره لأسفل فيقع قلبه في بركان نشط على الوشك الفتك بكل ما يقع به، ثم يظهر الشيخ خلفها وهو يتفحصه بنظرات من صحراء سيناء تقتحم عين صحرائه الغربية وتعرف كل مايخبئ وما يحتفظ من أسرار، يمد يده إليه في هدوء ويشد على يده بقوة، يكاد الفتى ألايصدق نفسه، قبّل أمه على رأسها وعانقها. قال له الشيخ أنهما سيسافرون إلى الطور من الصباح لأنها تسكن هناك، كاد يذهب من الليلة وحده ومنعه فقط البرد القارس وعدم درايته بالطريق.

سافروا في اليوم التالي وهو مازال لايصدق ماتفعله أمه من أجله، يتذكر طيبة ماريسا وجون ولايجد مقارنة مع حنان أمه ونظرتها الدافئة، وصلا إلى طور ورآها فوق تلة قريبة ترعى أغنام أبيها، دخل الشيخ الأشيب لأبيها يحدثه ودخلت أمه

وبقي هو ينظر للتلة باعثا بروحه إلى الفضاء مرسالاً حتى تراه أو تشـــعر به، نظرت تجاهه وتجمد قلبها، لاتعلم ماذا يفعل هذا الرحّال الأمازيغي المجنون خارج خيمة أبيها، تعود وهي تعدو لأســفل ويعدو خلفها الغنم المندهش، تصــل إلى الخيمة بينما يخرج أبوها وأمه والشــيخ الأشــيب، وقفوا في صــمت يتبادلون النظرات ولاحظ أبوهـا كيف تنظر للفتى الأسمر الوجـه فتُفرح وجهه وينير وجهها.. وأطلقت أمه الزغاريد التي مازالت تطربه إلى اليوم.

بعد فرح كبير اســتمر يومين ومهرها المكون من ناقتين، واعترافها أنها أحبته من أول نظرة ولكنها خافت من أن يرتبطا لدرجة خطرة تضـرها وتضـره، وحبهما الوليد، اتفقا على العيش في طور بعد اصـرار أبيها، وافقت الأم على مضـض وهي تخاف أن يبعد ابنها مرة أخرى بعدما عاد من ســفره البعيد ولكنها تركته بعد أيام الفرح الجميلة وعادت للواحات.

أحاطه سحر طور سيناء والبحر وزوجته التي ما أن رفعت غطاء وجهها ليلة الزواج حتى انتحر قلبه في صدره بعد أن بحث عن قوة أو عدد لدقات معينة تخبرها كم يحبها فلم يجد.. استعجب عندما تذكر حدسه بأنه كان يعرف أنه سيراها وأنها ستصبح من نصيبه، واستعجب أكثر عندما عرف أنها كانت تشعر بنفس الشئ. رأى نفسه سعيداً معها حتى وإن لم يكن يرى أبعد من نقطة معينة مبهمة كانت تمثل أكثر مايخاف، يشتغل بالصيد ويعود ليمارس الحب معها، يضع أصابعه حول جفنيها وهي ترقد فوقه ويرسم بكحلها الطازج خطوطاً تتعامد على عينيها فتبدو كالشمس، يرمي عليها من أبيات الشعر العديدة باللغة العربية وما يعرفه من اللغات الأمازيغية مايجعل قلبها يذوب في الحب.. يقعان في الحب من جديد يومياً. لم يتكلم لأحد أبداً بالأمازيغية ولا حتى لبسنت أو هند، فقد احتفظ بقلبه الكامل لها.

رزقا بريحانة بعد سنتين، وشعر بآدم وهو أمام ربه يعلمه الأشياء، شعر بالعرفان والحب وانفراج الأسارير وتواجد

الملائكة، وحواء وخلقها وجمالها أحاطوه بعشـــق وحنان.. النوم واللعب والحب والاســـتيقاظ والقبلات وكحل العينين و عطر الجســـد ورائحة رمال الصـــحراء وصـــخور كاترين ولبن الماعز والشـــوي والطعام والحب والجمال والراحة وأكواب الشـــاي والجبال والقمر والنجوم والحب.. كانت تطبخ له من الطعام مايدير رأســـه وتؤكله بيد وهي ترضـــع ريحانة باليد الأخرى، لطعامها مذاق خاص لايماثله شـــعور في الكون كله.. أحبها أكثر من حبه لحبها.. وأحبته.

(٢٠)

اختفى الخدر تماماً من قدمه وأخذ وعيه يســـتقبل البيئة المحيطة ببطء فوجد نفسه قريباً لها، يقف أمام شاهد قبرها وقبر ريحانة.. وجد يديه ترتفع من تلقاء نفسها لتمسح دمعة حديثة التكوين ثم تشـــتبك باليد الأخرى في تغطية وجهه ليبكي في مرارة وهو يدعو لهما وسط دموعه واختناق الكلمات في حلقه.

لم يكن هـذا قبرهمـا الحقيقي ولكنـه اعتبر كـل القبور متصلة بشكل أو بآخر، صنع شاهدا صخريا حزينا ووضعه في المقابر، يزوره وهو جالس أو واقف تحت الشـــجيرات والنخيل، كانت هي في مدفنها في طور وكان هو في سيوه بلده الأصـلي بعـد قرار عودة أمـه إلى هنـا لأن البحريـة لم تكن تحمـل لهـا مـايكفي من الســـلام، وافق وعـاد معهـا وهو يجر قدميه بعد الطعنة النافذة التي قصـمت قلبه نصـفين، نصـف تركه في طور مع من جعلت قلبه كبيراً والنصـــف الآخر احتفظ به لأمه التي تحتاج رعايته وحبه الكاملين.

تحركت الشـــمس مع حركة الكرة الأرضـــية وتغير ظل الشـاهد، تبخرت دموعه وذهبت لأم ريحانة في السـماء تلعقها حتى تعود عيناه بيضـــاء كالثلوج يوم التقيا، حتى عندما يتذكرها وهو حزين تُطهر له قلبه، رآها تبتســـم هي وابنته فابتســـم لهما ومســـح الدموع القليلة الباقية في كم جلبابه واتجه ذاهباً لبيت أمه، تاركاً الفطير والعســـل أمام المدرســـة بينما تتجه دورة اليوم لوقت العصر.

دخل على أمه البيت وهو يحمل بعضاً من مراهم زيوت النخيل والزيتون و بعض الماء الكبريتي في آنية، رحبت به و هي تنظر لعينه في خوف وقلق، تسـأله مالذي أتي به الآن وهو يسكن في الطرف الآخر من الواحة في بيته مع زوجته، كان يريد أن يخبرها كل ماحدث ويشكو لها صدره لأيام وأيام ولكنه لم يفعل، يأخذها إلى غرفتها ويضع دلواً أسفل السرير، يجعلها تمد رأسها خارج حافة السرير ويقف على رأسها، يسكب الماء على رقبتها ويدلك كل ما بها من ألم وقلق، يدهن كل مافات من تعب أمه في تربيته وتربية أخوته ومرض أبيه، يدهن ظهرها ومعانتها وألم ماضيها الذي لم يعرفه إلا بعد أن ماتت أم ريحانة، يحرك يده على فقرات ظهرها طارداً كل الشكوك والعذاب والوحدة والانشغال به والحزن الدفين وحملها لزلعة العسل وخبزها للفطير والخبز يوميا، يضع على يده مرهماً ويحيل ظهرها الأصفر إلى أبيض كالقمر في سيناء يوم أن شعرت بالبرد وهي تخطب له حبه في جنوب سيناء، يقرأ لها الأدعية التي علمتها له والأدعية الأخرى التي تعلمها مع عم عبده، يطرد كل ظلم الأقدار

المكتوب ويطرد انتظارها له ودموعها وابتسامتها وهي تتذكره في أسى، يطرد الوقت الذي خالف أمرها فيه وتزوج المرأة التي تركته صباح اليوم، يطرد قصصها وأساطيرها غير الكاملة ويعمق شعورها بالحب بمن حولها.. يغطيها بنفس الغطاء الذي غطته به وهو صغير، يغلق باب الغرفة عندما انتظم تنفسها وذهبت في سبات عميق مستمتعة بفترة ذهاب ماضيها.. يجلس في الفناء يرسم بيده على الرمل عيونا تخرج منها آشعة شمس وجبال وقلوب وملائكة وأسهم. يرسم وجوها صورها بكاميرته وهو صغير ويرسم بحرا خاليا من السفن.. رسم شاهد قبر صغيرا واثنين كبيرين.. شعر بقرب انتهاء رحلته فقام متجهاً للمدرسة ليحضر مابقي من الفطير وليلحق بباقي التلاميذ التي تدخر وجبته اللذيذة لما بعد انتهاء اليوم الدراسي.

(٢١)

عندما وصـــل إلى المدرســـة وجد التلاميذ يخرجون في ارهاق وتعب، وتكاد الشـمس أن تسـقط من ارهاقها وتعبها، ويكاد هو يذوب في الهواء من ارهاقه وتعبه، اصـطبغت السـماء بلون أحمر وبرتقالي سـببه درجة ميل الشـمس بالنسـبة لكوكب الأرض الصغير، تدرجت الألوان الشبيهة بقوس قزح وهي تغلف الطبقات السماوية بفنها وليد اليوم الذي شارف على الانتهاء، وصـل للقفص الخشـبي ووجد بعض الصـغار يلتفتون حولهم في حيرة حتى رأوه فانبســطت تجاعيد وجوههم المرهقة وانتصــبت قاماتهم لتعدل ما تسـتطيع من لبسـهم غير المهندم، يضـع لهم العسل والقرفة في سرعة لم يعتادوها، انفضوا وبقي الخواء.

رجعوا لمنازلهم لايلوون على شـــئ بينما كان يلملم هو أشـــياءه ويســـتعد للرحيل، بقيت فطيرة واحدة ومايكفيها من قطرات العســـل، لا يعلم إلى أين يذهب ولا أي مكان يئويه اليوم ولكنه كان فقط يريد الرحيل. من بعيد رأى ســعدية وهي

تحمل بيديها شـــيئاً عليه غطاء وتضـــعه على الأرض أمام عم عبده الذي انتفض واقفاً وهو يضع يده على شعره ويميل رأسه لأسفل، تمتما ببضع كلمات ونظرا له وأطالت سعدية نظرتها له ثم ذهبت، أشـــار له عم عبده ليأت فتردد في الذهاب ثم ذهب بعد أن أدرك أنه لا يوجد مكان يذهب له اليوم، ذهب وجلس أمام عم عبده وأزاح عم عبده الغطاء الأصفر مثل ساحر يقوم بخدعة قديمة يعلمها جيداً.

(٢٢)

الطعام..

يجعل للطعام منزلة خاصـــة لاتهتز بين متع الخطايا الدنيوية، رائحته وشكله والأطباق والشعور بالجوع وشرب المياه لإنزال طعم الملح من الفم والبهارات، النوم بعد الأكل والحساء والصـــواني والجلوس والدهن الذي يبقى على اليدين بعد الأكل والملاعق وامتلاء المعدة والأكل البطئ والســـريع.. يجعله الطعام في حالة خمول وترقي وهو يمضغ ويبتلع ويغوص بلسانه في ثنايا

فمه وبين ضروسه لإلتقاط مابقي من الفتات المختلف وإعادة تذوق كل وجبة بعد أن تنتهي.. كان يحب الطعام.

رفع عم عبده الغطاء القماشي ليجدا صينية نحاسية مزخرفة وعليها أنواع من الطعام الطيب على أطباق كبيرة، مع حركته في إزالة الغطاء تناثرت تجاههما روائح البهارات المطهوة مع الأكل جيداً حتى تتفتح رائحتها وطعمها مثل وردة قطن في موسم الحصاد ، شرعا في الأكل بدون أن ينظر أحدهما للآخر، كان جائعا بالفعل بعد هذا اليوم الطويل من الذكريات والإبحار في عوالم الذنب والندم، يشرب المياه بعد أول ملعقة من الرز الأحمر ليعوض دموعه الساقطة بغزارة اليوم، تقف كل حبة أرز في حدة وهو دليل على مهارة الطاهية وتقبع بينهم المكسرات من اللوز والجوز والزبيب المحمر، على سطح بعض حبات الأرز قد يجد ذرة من الفلفل الأسود التائهة على أجزاء الكبد المقطعة بعناية.. بجانب الأرز تقبع سلطانية صغيرة من شوربة لسان العصفور التي تبدو بقع السمن عائمة على سطحها كجزر الكناري في المحيط الأطلنطي.. أمام طبق الرز سلطانية أكبر

قليلاً بها دمعة حمراء اللون وعندما قلبها بالملعقة صعدت حبات البطاطس والفلفل الأخضر والأحمر كفرعون وهو يعد ربه بأنه سُيؤمن.. يلتهم الطعام ويتفجر في فمه مذاق يعرفه جيداً، مذاق جعله يبطئ في تناول الطعام ويتريث في مضغه.. يسمع صوت عم عبده وهو يأكل كالمحروم، كأنما وجد تصالحه مع نفسه في لقيمات العيش البلدي المغرقة في سلطانية البطاطس الدسمة.. يعرف هذا الطعم جيداً، هذا الخليط من البهارات..

في وسط الصينية تقبع فرخة شابة مليحة تبدو وكأنها سببت تصارع الكثير من الديوك عليها في الماضي، مشوية على فحم أسود داكن سبّبَ تفحم أجزاء منها، انفصل لحم الدجاجة الأبيض عن عظامها بسهولة ويسر، قشر جلده أولاً وتناوله في لقمة كبيرة من العيش ثم انطلق في حرب الصدور والأوراك وهو يضغط على اللحم الأبيض بضروسه التي تقع على ناحية الشمال لأنهم وقعوا وانكسروا على الناحية الأخرى، يضغط ببطء مستمتعاً بعصير الشوي والمذاق الذي يملأ فمه

بعد كل ضغطة.. يحب الطعام.. يستمر في الأكل مع عم عبده بدون أن يتكلما، غارقين حتى الثمالة في اللذات المذاقية..

هذا مذاق أكل أم ريحانة.. أو يشبهه لحد كبير، لايخطئه أبداً، هل أحنت عليه وبعثت له بوليمة من السماء؟ أم أنه قد مات وهي تطبخ له في الجنة؟ لايصدق اللقيمات.. يكاد يبكي من جديد.. يشبه لحد كبير مذاق أكل أم ريحانة، بل إنه هو ذاته..

"ياسماء يا رحيمة ترحمي فإنني أحتاج لك، يارب ياكريم ساعدني ولاتتركني وقربني منك"

قاطعه عم عبده بالسؤال عن حالة مبتسماً، حكى له عن كل شئ فجأة، مولود قبع في بطن أمه حتى الميعاد فانفجر خارجاً منها يبكي على ما سوف يواسيه في هذه الحياة، عادةً يخبر عم عبده عن هند التي لم ينم معها ويكاد عم عبده أن يصيبه الجنون وهو يسأله عن كيف قاوم، أو يخبره عن أنواع النبيذ في فرنسا أو إسبانيا، يخبره عن الحانات في القاهرة

والسكارى الأغبياء، عن بسنت وقبلاتها أو عن حبه اللامتناهي لأم ريحانة.. اليوم يحكي له عن المرأة التي تركته واتهمته بالخيانة، المرأة التي أتت تحمل ولدين بعد زواج آخر فاشل فانتشلها رغم معارضة أمه لأنها لاتنتمي لقبيلة أمازيغية أصيلة، وكان رده أنه لم يكن ينتمي لقبيلة سيناوية أصيلة ولكن الله كرمه فلماذا لايكرمها، المرأة التي تركته اليوم مصطحبة ولديها اللذين أحبوه وأحبهما كأنهما منه، المرأة التي يكرهها ويحبها ويفتقدها الآن في نفس الوقت، المرأة التي يريد أن يضربها ويحتضن كفيها حتى تشعر بالنعاس.. حكى له كل شئ وانتهى وهو يبلع مرارة كل ماقاله بكوب ماء محلى بالياسمين.

أخذ عم عبده يضحك كعادته في هذه المواقف.. ثم احتقنت عيناه بلون دموي، يرى امرأة صديقه وسبب عذابه الحالي ويرى امرأته السابقة وسبب عذابه الدائم.. يرى نفسه وهو ينتقم لصديقه ولنفسه، يرى نفسه وهو يقتل امرأته من جديد لتعويض سنوات اللوم لنفسه عن غلطتها غير المغتفرة، يرى امرأة صديقه وهي تخونه في منزله مع رجل آخر أقدر

وأغنى، يرى نفســه وهو يضــحك ناظراً ليديه المليئتان بالدماء فيتوقف ويزول احتقـان عينيـه.. ينظر عم عبـده للنجوم الخـافتـة والقمر الحنون وتدمع عيناه ويتلو ذكراً قديماً تصور أنه قد نسيه:

"اللَّهُمَّ إِنِي أَسْـأَلُكَ باسمكَ الَّذِيْ فتحتَ بِهِ عالمي الأَمر وَالخلق،

بالتجلي الحق،

المظهر للنسب،

المتنزل المتعالي أَمرا وَوجودا، ظهورا وَبطونا،

معقولا ذلكَ لمن أَيدتَ بل معلوما لمن أَشهدتَ، مجهولا لمن شئتَ بما تشاء بِهِ،

من كثرة لاَ تقدح فِي وَحدة مَا أَحكمته فِي محكمه،

يَا عليم يَا حكيم يَا فتاح، يَا الله:

أَسْــأَلُكَ اللَّهُمَّ بســر الإِضــافة الرابطة بَيْنَ حضــرتي الوجوب وَالإِمكان،

المقتضية بظهور النعتَ الأَعظم، بالإِسم المبهم،

بثبوتَ الماهيتين، عموما وَخصوصا،

بدءاً وَعوداً،

عَنْ سعة عموم الرحمانية التي لاَ تتناهى،

وَاسـقرارا وَثبوتا عَنْ الرحيمية الرافعة لشُـهُوْدِ أَسـباب التقريب بالقرب المجهول الماهية مِنْكَ.

يَا فتاح يَا عليم: أَسْأَلُكَ التنوير وَالتيسير وَالمعونة،

وَالفوز وَالحفظ وَالرعاية، وَالستر وَالتكميل وَطيب الرزق وَالبركة فِيه،

وَالرجاء بِكَ

وَحسن الظن بِكَ وَاليأس من غَيْرِكَ.

بسـم الله الرحمن الرحيم تكوين بأمركَ وَتكميل لجودكَ وَبرِّكَ،

وَبركة عَنْ تباركَ اسمكَ، وَتعالى جدكَ، وَلاَ إِلَهَ غَيْرِكَ،

بِكَ آمنا،

وَلكَ أَسلمنا،

وَعليكَ توكلنا"

لم يجد عم عبده في نفسه أي شئ ليقوله ولكن مع اختفاء ابتسامة المجنون وقدوم ابتسامة المطمئن ربت على كتف صاحبه وقال، "يللا نرجع الأطباق إلى إلهة بطوننا الجديدة.. يمكن نلاقي هناك أكل زي ده أكتر" وانفجر ضاحكاً.. "على فكرة هي عملت الأكل ده لك لأن شكلك كان حزين النهاردة، طيبة جداً سعديه.. عرفت جواك ايه من نظرة واحدة وأنا صاحبك مفهمتش إلا لما حكيتلي، الله يكتبلكوا اللي فيه الخير" .. نظر له بائع الفطير في نظرة بلا دلالة وقام وهو يسند ذراعه على كتفه وتقوم قدماه ببطئ كجمال كاترينا..

اختفت الشمس تماماً وخلت السماء للقمر وهما يمشيان في تؤده وإعياء، يمشيان في شوارع الواحة بين البيوت وتجتاح نفوس كل منهما الأفكار والذكريات والحب الضائع، تجتاحهما سنوات من الصحبة والأذكار والرقص وأكواب الشاي وفطائر العسل بالقرفة، يمشيان ولايضحك عم عبده، فقط يتلاعب فوق شفتيه شبح ابتسامة المعيّة الإلهية العائده كعروس مفقودة

يوم الفرح، يهمس في أذن صـاحبه الذي كاد يسـقط أكثر من مرة:

"كن مطمئناً.. أهم حاجة كن مطمئناً".

تمت....

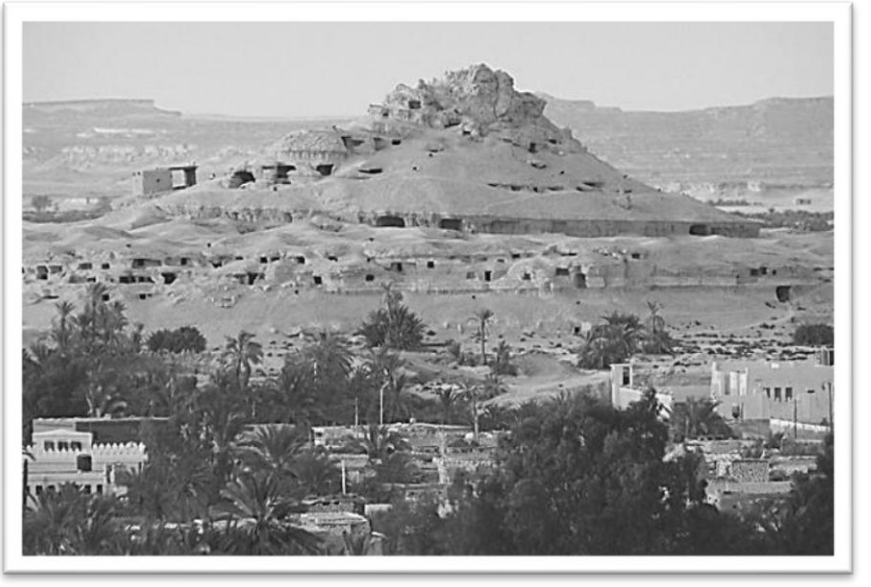

مقابر واحة سيوه، جبل الموت

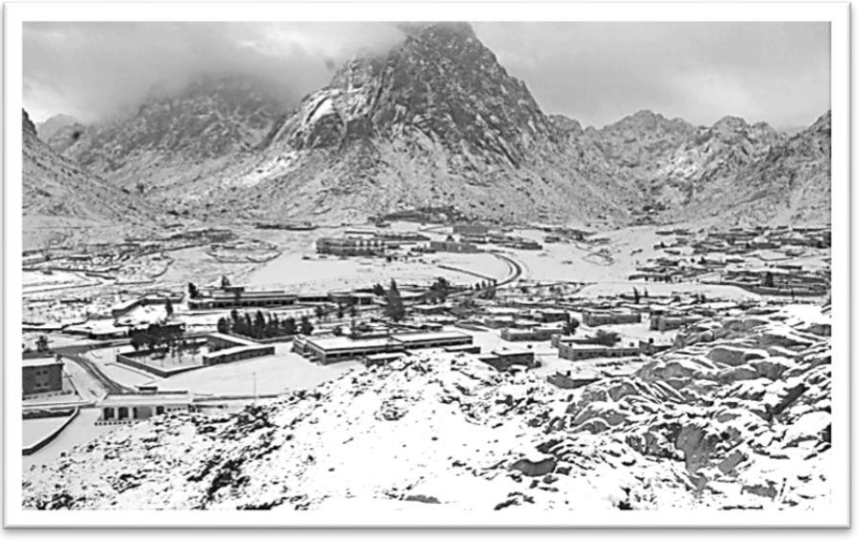

كاترينا

إلى كل من فقدناهم.. و مازلنا نفقدهم